مكتبة مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين ١

مختصر

الداء والدواء

للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب

ابن قيم الجوزية

٦٩١-٧٥١هـ

مكتبة مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقا

1 18

مُختصر

الدَّاءِ والدَّواءِ

ح أحمد بن عثمـان المزيد، ١٤٤٧هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهـد الوطنية أثنـاء النشر
المزيد، أحمد بن عثمـان
مختصر الـــداء والـــدواء./ أحـمـد بن عـثمـان المزيد-ط٢. -
الرياض، ١٤٤٧هـ.
٨٨ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم.

رقـــم الإيـــداع: ٤٩٧١ / ١٤٤٧
ردمك: ٣ - ٨٧٣٥ - ٠٥ -٦٠٣ - ٩٧٨

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَة
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م)



مَكْتَبَةُ مُخْتَصَرَاتِ كُتُبِ الإِمَامِ ابْنِ القَيِّمِ لِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ (١)

مُخْتَصَرُ

الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ



لِلإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ

ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ

٦٩١-٧٥١هـ

اخْتَصَرَهُ

أ.د. أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ المَزْيَدِ

أُسْتَاذُ الدِّرَاسَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةُ المَلِكِ سُعُودٍ سَابِقًا



إهـــــداءُ

إلى الـوَالِـدِ الشَّـيْخ

عُثْمَـانَ بْنِ أَحْمَدَ المَزْيَد رَحِمَهُ اللهُ وأَسْكَنَـهُ الفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّـةِ.

وإِلَى الـوَالِـدَةِ حِـصَّـةَ بِنْتِ حَمَــدٍ المَـزْيَـد حَفِظَهَا اللهُ،

وإِلَى زَوْجَتِي وذُرِّيَّتِي أَسْعَدَهُمُ اللهُ جَمِيعًا فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التعريف بمختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبينَا محمدٍ رسولِ الله ﷺ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ، ومن اقتفىٰ أثرَهُ، وعَمِلَ بهدْيِهِ، واستنَّ بسنَّتِهِ، أما بعدُ:

فلقد تميَّزت كتبُ الإمامِ ابنِ القيم بالقبولِ والانتشارِ عند المسلمين كافَّةً علىٰ مرِّ العصور، حتىٰ عُدَّت من أكثرِ الكتبِ الشَّرعيَّةِ اقتناءً؛ **ففي كتبِه** دعوةٌ للتَّمَسُّكِ بالكتابِ والسنَّةِ وتعظِيمِهما، والتأكيدُ علىٰ ضرورةِ توحيدِ اللهِ تعالىٰ وإخلاصِ العبادةِ له، ومتابعةِ الرَّسولِ ﷺ والاقتداءِ به، وتحذيرٌ من الشركِ وبيانٌ لخطورتِه، والاهتمامُ بالعباداتِ القلبيَّةِ وتوضيحُ آثارِها، وإبرازُ مقاصدِ الشريعةِ وحِكَمِها ومحاسِنِها؛ علاوةً علىٰ تميُّزِها بالأسلوبِ الماتعِ الذي يخاطبُ العقلَ والقلبَ، ويمزجُ المعرفةَ بالسُّلوكِ.

وتقريبًا لعلومِ الإمامِ ابنِ القيِّم وتيسيرِها لعامةِ المسلمين - وبخاصةِ الشَّبابِ والشَّابَّات - وتعظيمًا للإفادةِ من كتبهِ فقد أكرَمني اللهُ ووفقني لإخراج **«مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين»**؛ وقد اختصرْنا من كتبِ الإمامِ ابنِ القيمِ ما يُلبّي حاجةَ عامّةِ المسلمين، مُركّزين علىٰ صُلبِ موضوعاتِها (**أمّا ما لم يُختصرْ فللمتخصّصين وطلبةِ العلْمِ**) [(١)]، وقد حافظْنا علىٰ ألفاظِه الأصليّةِ دونَ زيادةٍ أو تصرّفٍ.

(١) ومن هذه الكتب المتخصصة التي لم نختصرها:
الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ حرب المعطلة والجهمية، الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،

وتحققُ هذه المختصرات - بإذن الله - ثلاثةَ أهدافٍ كبرىٰ:

* **أولًا:** ترسيخَ الإيمانِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وتوحيدَه، وإفرادَه بالعبادةِ حبًّا وخوفًا ورجاءً.

* **ثانيًا:** التأسيَ والاقتداءَ بالرسولِ ﷺ عقيدةً، وعبادةً، ومعاملةً، ومعرفةَ حقوقِه علىٰ أمته وما يجبُ له؛ إذ «لا عقيدةَ إلا عقيدتُه، ولا حقيقةَ إلا حقيقتُه، ولا طريقةَ إلا طريقتُه، ولا شريعةَ إلا شريعتُه، ولا يصلُ أحدٌ من الخلقِ إلىٰ اللهِ وإلىٰ رضوانِه وجنتِه وكرامتِه وولايتِه، إلا بمتابعتِه باطنًا وظاهرًا في الْأَقْوَالِ والأعمَالِ الباطِنَةِ والظَّاهِرَةِ». [مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية (١٠/ ٤٣٠)].

* **ثالثًا:** توثيقَ صلةِ المسلمِ بالعباداتِ القلبيَّةِ، وضرورةَ التمسُّكِ بالأخلاقِ والقيمِ النبويَّةِ.

وتشتملُ «مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين» علىٰ ثمانيةَ عشرَ مختصرًا لأهمِّ كتبِه، علىٰ الترتيب الآتي:

١ - مختصر «الدَّاءُ والدَّواءُ».

٢ - مختصر «الوابِلُ الصَّيِّبُ ورَافعُ الكَلِمِ الطَّيِّبِ».

٣ - مختصر «حادي الأرْواحِ إلىٰ بِلادِ الأفْراحِ».

هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، تهذيب سنن أبي داود، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، رفع اليدين في الصلاة، أحكام أهل الذمة، إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، الفروسية المحمدية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، الكلام علىٰ مسألة السماع.

٤ - مختاراتٌ من «كتابُ الصَّلاةِ».

٥ - مختصر «الفَوائدُ».

٦ - مختصر «عُدَّةُ الصَّابرينَ وذَخيرةُ الشَّاكرينَ».

٧ - مختصر «إغَاثةُ اللَّهْفَانِ في مَصَايِدِ الشَّيْطَانِ».

٨ - خُلاصَةُ «مَدَارِجُ السَّالكينَ في منازلِ السَّائرينَ».

٩ - مختصر «طريقُ الهجْرتَيْنِ وبابُ السَّعَادَتَيْنِ».

١٠ - مختصر «زَادُ المَعَادِ في هَدْيِ خَيْرِ العِبَادِ».

١١ - مختصر «جِلاءُ الأفْهَامِ في فَضْلِ الصَّلاةِ والسَّلامِ علىٰ خَيْرِ الأنامِ ﷺ».

١٢ - مختصر «تُحْفَةُ المْودودِ بأحكَامِ المَوْلودِ».

١٣ - مختصر «التِّبْيَانُ في أَيمَانِ القُرْآنِ».

١٤ - مختصر «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ ومَنْشُورُ وِلايَةِ العِلْمِ والإرادَةِ».

١٥ - مختصر «رَوْضَةُ المحبِّينَ ونُزْهةُ المُشْتَاقِينَ».

١٦ - مختاراتٌ من «بَدَائعُ الفَوَائدِ».

١٧ - مختصر «كتابُ الرُّوحِ».

١٨ - ثلاثُ رسائلَ لابنِ القَيِّمِ: [الرسالة التبوكية - رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه - فتيا في صيغة الحمد].

وإنَّ من تيسيرِ الله وتوفيقِه أنَّ هذه المختصرات اشتملتْ علىٰ أغلبِ العلومِ الشرعيَّةِ، وذلك علىٰ النَّحو الآتي:

١ - **في العقيدة**: مختصراتُ كتبٍ: إغاثةِ اللَّهفانِ، حادي الأرْواح، كتاب الرُّوح.

٢ - **في التفسير وعلوم القرآن**: مختصراتُ كتبٍ: التبيانِ في أيمانِ القرآنِ، بدائعِ الفوائدِ.

٣ - **في سيرة النبيِّ ﷺ وحقوقِه**: مختصراتُ كتبٍ: زادِ المعادِ، جِلاءِ الأفهامِ.

٤ - **في الفقهِ والعباداتِ**: مختصراتُ كتبٍ: زادِ المعادِ، كتابِ الصلاةِ.

٥ - **في التزكيةِ وأعمالِ القلوبِ**: مختصراتُ كتبٍ: مدارجِ السَّالكين، طريقِ الهجرتين، روضةِ المحبين، مجموعِ الرسائل.

٦ - **في الذِّكرِ، والعِلْمِ**: مختصراتُ كتبٍ: الوابلِ الصيِّبِ، مفتاحِ دارِ السَّعادة.

٧ - **في القيمِ والآدابِ**: مختصراتُ كتبٍ: الدَّاءِ والدَّواءِ، عُدَّةِ الصَّابرين، الفوائدِ، تُحفةِ المودودِ.

وحتىٰ تَسْهُلَ علىٰ القارئ الكريمِ الإفادةُ من هذه المختصرات المباركةِ ويَكملَ نفعُها لديه؛ فقد حرصنا علىٰ جودةِ إخراجِها؛ بالاعتمادِ علىٰ أفضلِ الطبعاتِ، وهي طبعة "عطاءات العلم"، مع مراعاةِ التنسيقِ والتفقيرِ، والترقيمِ، والتشكيلِ، مع التمييزِ بالألوانِ؛ ثم بإتاحة حقوقها لكلِّ مسلمٍ مفردةً أو مجموعةً.

فما أجملَ أنْ نُحقِّقَ أهدافَ هذه المختصرات المباركةِ؛ بقراءتها، وتعلُّمِها، والعملِ بها، وتعليمِها، وجعْلِها منهجًا لحياتنا؛ لنكونَ أهلًا للاقتداءِ بالنَّبيِّ ﷺ في الدنيا؛ ونفوزَ بالورود علىٰ حوضِه، وشفاعتِه ومرافقتِه ﷺ في الجنَّةِ!

واللهَ نسألُ أنْ يجعلَها خَالصةً لوجهِه الكريمِ، وأن يَعُمَّ بها النَّفعَ، ويَكتبَ لها القبولَ، والشكرُ الجزيلُ لمن يشاركُنَا نشرَ هذا العلمِ النافعِ؛ من آباءٍ وأمهاتٍ بين أسرِهم، وأئمةٍ في مساجدِهم، ولمن يُسهمُ في ترجمةِ المختصرات لأهمِّ اللغاتِ العالميَّةِ، أو تحويلِها لمحتوىٰ صوتيٍّ ومرئيٍّ وتعليميٍّ، ونشرِها في الوسائطِ الرقميَّةِ، وقنواتِ الإعلامِ الجديدِ.

وآخرُ دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية – جامعة الملك سعود سابقًا

(Mokhtsrat100@gmail.com)

ترجمة الإمام ابن قيم الجوزية(١)

١ - اسمه، ونسبه، وكنيته، ولقبه:

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز، الزُّرَعِي الأصل، ثم الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قَيِّم الجوزية، شمس الدين، أبو عبد الله.

٢ - مولده:

ولد في السابع من صفر سنة (٦٩١هـ).

٣ - شيوخه:

كان ابنُ تيميةَ من أبرزِ شيوخِه؛ فقد لازمه مدة طويلة، وكان لا يخرجُ عن شيءٍ من أقوالِه، كما أخذَ العربيةَ علىٰ ابن أبي الفتح والمجدِ التونسي، وقرَأَ الفقهَ علىٰ المجدِ الحراني، وكان لأبيهِ في الفرائضِ يدٌ فأخذَها عنه، وقرأ في الأصولِ علىٰ الصفي الهندي.

٤ - خُلقه وعِلْمه:

* يقول ابنُ رجب عنه: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا عبادةٍ وتهجدٍ وطولِ صلاةٍ إلىٰ الغايةِ القصوَىٰ، وتألهٍ ولهج بالذكرِ، وشغفٍ بالمحبةِ والإنابةِ والاستغفارِ، والافتقارِ إلىٰ الله، والانكسارِ له، والاطراح بينَ يدَيه علىٰ عتبةِ عبوديتِه، لم أُشاهِدْ مثلَه في ذلك، ولا رأيتُ أوسعَ منه علمًا، ولا أَعْرفَ بمعاني الْقُرْآنِ والسنةِ وحقائقِ الإيمانِ منه، وليس هو المعصومَ، ولكن لم أرَ في معناه مثلَه»(٢).

* وقال ابنُ كثير عنه: «وكان حسنَ القراءةِ والخُلقِ، كثيرَ التوددِ، لا يحسدُ أحدًا

---

(١) ينظر في ترجمته: ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٥/ ١٧٠)، العبر في خبر من غبر، الذهبي (٤/ ١٥٥)، الوافي بالوفيات، الصفدي (٢/ ١٩٥)

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٣).

ولا يُؤذيه ولا يستعيبُه، ولا يحقدُ علىٰ أحدٍ، وكنتُ مِن أصحبِ الناسِ له، وأحبِّ الناسِ إليه، ولا أعرفُ مِن أهلِ العلم في زمانِنا أكثرَ عبادةٍ منه»(١).

* وقال ابن حجر: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف»(٢).

* وقال السَّخَاويُّ عنه: «المجمع عليه بين المخالف والموافق»(٣).

* وقال الشَّوكانيُّ: «كان متقيدًا بالأدلة الصحيحة، معجَبًا بالعمل بها، غير معول علىٰ الرأي، صادعًا بالحق لا يحابي فيه أحدًا»(٤).

٥ - تصانيفه:

منها: الداء والدواء، والوابل الصيب، وزاد المعاد، وكتاب الصلاة، والفوائد، والتبيان في أيمان القرآن، ومفتاح دار السعادة، وطريق الهجرتين، ومدارج السالكين، وجلاء الأفهام، وعُدَّة الصابرين، وإغاثة اللهفان، ومفتاح دار السعادة، والروح، وحادي الأرواح، وتحفة المودود، وروضة المحبين، وبدائع الفوائد، وأعلام الموقعين، وتهذيب سنن أبي داود، وغيرها.

٦ - تلاميذه:

أخذَ عنه خلقٌ كثيرٌ -حتىٰ في حياة شيخه- وكانوا يعرفون فضلَه وعلَمه، ويقصدونه للإفتاءِ، ومنهم: ولدُه عبدُالله الذي تولىٰ منصبَ التدريسِ بمدرسةِ الصَدْريَّةِ بعد وفاة والدِه، وابنُ كثيرٍ، وابنُ رجبٍ، وشمسُ الدينِ النَّابلسي، وابنُ عبد الهادي، والفيروزآبادي وغيرُهم.

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٩).
(٣) وجيز الكلام في الذيل علىٰ دول الإسلام (١/ ٥٣ - ٥٤).
(٤) البدر الطالع (٢/ ١٤٣).

٧ - منهجه وخصائص أسلوبه:

❊ **منهجه**: تعظيم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، كما قال في بعض جواباته: «ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا علىٰ أصول أهل السنة، التي تظاهرت عليها أدلة القرآن، والسنة، والآثار، والاعتبار، والعقل»[(١)].

وقال ابن حجر: «وهو طويل النفس فيها، يتعانىٰ الإيضاح جهده، فيسهب جدًا، ومعظمها من كلام شيخه يتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية»[(٢)].

❊ **خصائص أسلوبه**: قال عنها الشَّوكانيُّ: «له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة، وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب...، وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيوله أتىٰ بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل»[(٣)].

٨ - وفاته:

تُوفِّي الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلة الخميس، في (١٣) رجب، سنة (٧٥١ هـ)، وكانت جنازتُه حافلةً جدا[(٤)].

---

(١) كتاب الروح (١/ ١٠٨).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٩).
(٣) البدر الطالع (٢/ ١٤٤- ١٤٥).
(٤) ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٥/ ١٣٧-١٤٠).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة مختصر «الداء والدواء»

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبينَا محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ، ومن اقتفىٰ أثرَهُ، وعَمِلَ بهدْيِهِ، واستنَّ بسنَّتِهِ، أما بعد:

فإنَّ تزكيةَ النُّفوسِ وتحصينَهَا من أمراضِ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ بابٌ عظيمٌ للورودِ علىٰ الله تعالىٰ بقلبٍ سليمٍ، فالشيطانُ لا يفتأُ يصيبُ ابنَ آدمَ بالأدواءِ التي تُفْسِدُ قلبَه وتُمرِضُه، ومن أجلِّ الكتبِ المصنَّفةِ في بيانِ علاجِ الشهواتِ كتابُ «**الدَّاءُ والدَّوَاءُ**» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأصلُ هذا الكتابِ فُتيا لسؤالٍ وَرَدَ عليه، عمن ابتُلِيَ بمرضٍ من أمراضِ الشَّهواتِ، الذي إنْ تمكَّنَ أفسدَ علىٰ صاحبِهِ دُنياه وآخرتَهُ؛ فأجابَ الإمامُ جوابًا يعدُّ منهجًا لكلِّ مَنْ يريدُ الخلاصَ من النَّظرِ المحرَّمِ، وتبعاتِهِ من العلاقاتِ غيرِ المشروعةِ.

فاستهلَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيانِ أهميةِ العلمِ والتداوي بالقرآنِ والدعاءِ، وأثرِ المعاصي مبيِّنًا عقوباتِها الشرعيةَ والقدريَّةَ؛ فبدأَ بالشِّرْكِ وأنواعِه، مرورًا بسوءِ الظنِّ، والقولِ علىٰ اللهِ بغيرِ علمٍ، والقتلِ، والزِّنا، واللِّواطِ، وتناولَ في طيَّاتِ ذلك مداخلَ المعاصي، وأنواعَ المحبَّةِ، وضررَ عِشْقِ الصورِ ودواءَه؛ فجاء الكتابُ حافلًا بالأدلةِ من الكتابِ والسنةِ، وعُدَّ من أكثرِ الكتبِ طباعةً، وانتشارًا علىٰ شبكةِ (الإنترنتِ).

وقد تميَّز أسلوبُ الإمامِ ابنِ القيِّمِ كعادتِه في كلِّ كتبِهِ بحسْنِ التقسيمِ والتفريعِ، مع تعظيمِ الكتابِ والسنةِ، والعنايةِ بأعمالِ القلوبِ، والوقوفِ علىٰ مقاصدِ الشريعةِ.

وعامةُ المترجمين لابنِ القيمِ ذكروا هذا الكتابَ باسمِ «الدَّاءُ والدَّوَاءُ»، وذُكِرَ باسمٍ آخرَ هو «الجوابُ الكافي لمن سألَ عن الدَّواءِ الشَّافي».

وممَّن أثنىٰ علىٰ الكتابِ الشيخ الدكتور بكر أبوزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال: «وفي هذا الكتابِ من لطائفِ العلمِ وحقائقِه، وبيانِ محاسبةِ النَّفسِ ومراقبتِها، ما لا يستغني عنه طالبُ علمٍ» [ابن قيم الجوزية حياته آثاره موارده (ص: ٢٤٦)].

ولتعظيمِ الإفادةِ من هذا الكتابِ المباركِ وتقريبِه وتيسيرِه للقرَّاءِ فقد اختصرناه وسلكنا في ذلك الآتي:

١- الإبقاءُ علىٰ ألفاظِ المؤلِّفِ دون زيادةٍ أو تصرُّفٍ.

٢- الاقتصارُ علىٰ صُلبِ موضوعاتِ الكتابِ، وما يحتاجه عامة المسلمين فقط.

٣- إبرازُ فوائدِ الكتابِ، والتخريجُ المختصرُ للأحاديثِ، وشرحُ غريبِ الألفاظِ.

٤- الاعتناءُ بالإخراجِ الفنِّيِّ للكتابِ وتنسيقه؛ لتسهُلَ قراءتُه ويقرُبُ مقصودُه.

٥- الاعتمادُ علىٰ أفضلِ الطبعاتِ للكتابِ، وهي طبعةُ عطاءاتِ العلمِ، بتحقيق: محمد أجمل الإصلاحي.

٦- طبعُ الكتابِ طبعاتٍ غيرَ ربحيَّةٍ، وجَعْلُ حقوقِه لكلِّ مسلمٍ.

واللهَ نسألُ أنْ ينفعَ بهذا المختصرِ كما نفعَ بأصلِه، وأنْ يكتبَ لنا ولمؤلفِه وقارئه الأجرَ الجزيلَ، وآخرُ دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ما تقولُ السَّادةُ العلماءُ، أئمَّةُ الدينِ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ في رجلٍ ابتُليَ ببليةٍ، وعلمَ أنَّها إنِ اسْتمرَّتْ بهِ أفسدتْ عليه دنياهُ وآخرتهُ، وقدِ اجْتهدَ في دفعِها عن نفسِه بكلِّ طريقٍ، فما تزدادُ إلَّا توقُّدًا وشدَّةً، فما الحيلةُ في دفعِها؟ وَمَا الطَّريقُ إلىٰ كشْفِها؟ فرحمَ اللهُ منْ أعانَ مُبْتَلًىٰ، واللهُ في عونِ العبْدِ مَا كانَ العبْدُ في عوْنِ أخيهِ، أفتونَا مأجورينَ.

فأجاب الشيخ الإمام: الحمدُ للهِ، ثَبتَ في صَحيح البخاريِّ[1] مِنْ حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ داءً إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**».

وَفِي صحيحِ مسلم[2] منْ حديثِ جابرِ بْنِ عبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ؛ فَإذَا أُصيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذْنِ اللهِ**».

وهذا يعمُّ أدواءَ القلبِ والرُّوحِ والبدنِ وأدويتَها، وقدْ جعلَ النبيُّ ﷺ الجهلَ داءً، وجعلَ دواءهُ سؤالَ العُلماءِ.

وقدْ أخبرَ سبحانهُ عنِ القرآنِ أنَّه شفاءٌ، فقالَ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

(١) البخاري (٥٦٧٨).
(٢) مسلم (٢٢٠٤).

و﴿مِنَ﴾ هاهنَا لبيانِ الجنسِ لا للتبعيضِ؛ فإنَّ القرآنَ كلَّه شفاءٌ، كمَا قالَ في الآيةِ المتقدِّمةِ، فهوَ شفاءٌ للقلوبِ منْ داءِ الجهلِ والشَّكِّ والرَّيبِ، فلمْ ينزِّلِ اللهُ سبحانَه منَ السَّماءِ شفاءً قطُّ أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظمَ ولا أنجعَ في إزالةِ الدَّاء منَ القُرْآنِ.

وقد ثبتَ في الصحيحينِ(١) من حديثِ أبي سعيدٍ قالَ: «انطلقَ نفرٌ من أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ في سفرةٍ سافرُوهَا، حتَّىٰ نزلُوا علَىٰ حيٍّ من أحياءِ العربِ فاستضافوهُمْ، فأبَوْا أنْ يضيِّفوهُمْ، فلُدِغَ سَيِّد ذلكَ الحيِّ، فسعوْا لهُ بكلِّ شيءٍ لا ينفعهُ شيءٌ، فقالَ بعضهُم: لَوْ أتيتمْ هؤُلاءِ الرَّهْطَ الذينَ نزلُوا علىٰ حيِّنا، لعلَّهُ أنْ يكونَ عِنْدَ بعضِهم شيءٌ، فأتوهُمْ، فقالوا: يا أيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سيِّدنَا لُدِغَ، وسعيْنَا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعهُ شيءٌ. فهل عندَ أحدٍ منكمْ من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعم واللهِ إنِّي لأرْقِي، ولكنْ واللهِ لقدِ اسْتضفناكُمْ فلمْ تضيِّفونَا، فمَا أنا براقٍ حتىٰ تجعلُوا لنا جُعْلًا، فصالحُوهُمْ علىٰ قطيعٍ من الغنم، فانطلقَ يتفلُ عليهِ ويقرَأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكأنَّما نَشِطَ من عِقالٍ. فانطلقَ يمْشي، وما بِهِ قَلَبَةٌ(٢)، فأوفوهُمْ جُعْلَهمُ الذي صالحوهُمْ عليهِ. فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقَىٰ: لا نفعلُ حتىٰ نأْتي النَّبيَّ ﷺ فنذكر له الذِي كانَ، فننظرُ بِمَا يأمرُنا، فقدمُوا علىٰ رسولِ الله ﷺ فذكرُوا له ذلكَ فقالَ: «**وما يُدريكَ أنَّها رُقْيةٌ؟**» ثمَّ قال: «**قد أصبتُمْ، اقتسمُوا واضربُوا لي معكمْ سهْمًا**».

فَقدْ أثَّر هذَا الدَّواءُ في هذَا الدَّاءِ وأزالهُ حتَّىٰ كأنْ لمْ يكنْ، وهوَ أسهلُ دواءٍ وأيسرُه، ولَو أحسنَ العبدُ التَّداويَ بالفاتحةِ لرأىٰ لها تأثيرًا عَجيبًا فِي الشِّفاءِ.

ومكثتُ بمكةَ مدَّةً تعتَريني أدواءُ ولا أجدُ طبيبًا ولا دواءً، فكنتُ أعالجُ نفسِي

(١) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).
(٢) قلبة: أي ألم وعلة.

بالفاتحةِ، فأرَىٰ لهَا تأثيرًا عجيبًا، فكنْتُ أصفُ ذلكَ لمنْ يشتكِي ألمًا، فكانَ كثيرٌ منهمْ يبْرأُ سريعًا.

ولكنْ هاهنَا أمرٌ ينبغِي التفطُّنُ له، وهوَ أنَّ الأذْكارَ والآياتِ والأدعيَّةَ الَّتي يُستشفىٰ بها ويرقَىٰ بهَا، هي في نفسِها نافعةٌ شافيةٌ، ولكنْ تستدعِي قبولَ المحلِّ، وقوَّةَ همَّةِ الفاعلِ وتأثيرِهِ، فمتَىٰ تخلَّفَ الشفاءُ كانَ لضعفِ تأثيرِ الفاعلِ، أو لعدمِ قبولِ المحلِّ المنفعلِ، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنعُ أن ينجعَ فيهِ الدَّواءُ.

وقالَ أبُو ذرٍّ: «يَكْفِي منَ الدُّعاءِ معَ البرِّ، ما يكفِي الطعامَ منَ الملحِ».

فصل: [الدعاء من أنفع الأدوية]

والدُّعاءُ مِنْ أنفعِ الأدويةِ، وهو عدوُّ البلاءِ، يدافعُه ويعالجُه، ويمنعُ نزولَه ويرفعُه، أو يخفِّفُه إذا نزلَ، وهوَ سلاحُ المؤْمنِ.

ولهُ معَ البلاءِ ثلاثةُ مقاماتٍ:

* **أحدُها**: أنْ يكونَ أقوىٰ منَ البلاءِ فيدفعُه.

* **الثَّانِي**: أن يكونَ أضْعفَ منَ البلاءِ فيقْوَىٰ عليهِ البلاءُ، فيصابُ بِهِ العبْدُ، ولكنْ قدْ يخفِّفُه وإنْ كانَ ضعيفًا.

* **الثَّالثُ**: أنْ يتقاومَا ويمنعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ.

ومنْ أنفعِ الأدويةِ: الإلحاحُ في الدُّعاءِ، وقدْ روَىٰ ابْنُ ماجه فِي سننهِ[١] منْ حديثِ أبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**».

---

(١) ابن ماجه (٣٨٢٧).

فصل: [من الآفات التي تمنع قبول الدعاء]

ومنَ الآفاتِ الَّتِي تمنعُ ترتُّبَ أثرِ الدُّعاءِ عليْهِ: أَنْ يستعجلَ العبدُ، ويستبْطِئَ الإِجابةَ، فيستحسرَ ويَدَعَ الدُّعاءَ، وهو بمنزلةِ مَنْ بَذَر بذرًا أَو غرس غَرسًا، فجعلَ يَتعاهدُه ويسْقِيه، فلمَّا استبطَأَ كمالَه وإدراكَه تركَه وأهْملَه.

وفي صحيحِ البُخاريِّ[(١)] مِن حديثِ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يُسْتجابُ لأحدِكُمْ ما لَمْ يعجل، يقولُ: دعوتُ فلمْ يُسْتَجَبْ لِي**».

فصل: [الدعاء الذي لا يكاد يرد]

وإذَا جمعَ الدُّعاءُ:

* حضورَ القلبِ وجمعيَّتَهُ بكلِّيَّتِه علىٰ المطلوبِ.
* وصادفَ وقتًا من أوقاتِ الإِجابةِ السِّتَّة وهِي:
  - الثُّلثُ الأخيرُ من الليْلِ.
  - وعندَ الأذانِ.
  - وبين الأذانِ والإقامةِ.
  - وأدبارُ الصَّلواتِ المكتوباتِ.
  - وعندَ صعودِ الإمامِ يومَ الجمعةِ علىٰ المنْبرِ حتَّىٰ تُقْضَىٰ الصلاةُ.
  - وآخرُ ساعةٍ بعدَ العصْرِ من ذلك اليوْم.
* وصادفَ خُشوعًا في القلبِ، وانْكِسارًا بينَ يدي الربِّ، وذُلًّا له وتضرُّعًا ورِقَّةً.

---

(١) البخاري (٦٣٤٠).

* واستقْبلَ الداعي القبْلةَ.

* وكانَ علَىٰ طهارةٍ.

* ورفعَ يديْهِ إِلىٰ اللهِ تعالىٰ.

* وبدأَ بحمْدِ اللهِ والثَّناءِ عليْهِ.

* ثُمَّ ثنَّىٰ بالصَّلاةِ عَلَىٰ محمَّدٍ عبْدِه ورسولِه ﷺ.

* ثُمَّ قدَّم بيْنَ يدَيْ حاجتِه التوْبةَ والاسْتغفارَ.

* ثُمَّ دخلَ علىٰ اللهِ، وألحَّ عليْهِ في المسْألةِ، وتملَّقه ودعاهُ رغْبةً ورهْبةً.

* وَتوسَّلَ إليْهِ بأسْمائِهِ وصفاتِهِ وتوْحيدِهِ.

* وقدَّمَ بينَ يديْ دعائِهِ صدقةً.

فإِنَّ هذا الدُّعاءَ لا يكادُ يُرَدُّ أبدًا، ولا سيِّما إِنْ صَادف الأدْعِيةَ الَّتي أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّها مظنَّةُ الإجابةِ، أَو أنَّها متضمِّنةٌ للاسْمِ الأعْظمِ:

○ فمنْها مَا فِي السُّننِ وصحيحِ ابْنِ حبَّان(١) من حديثِ عبْدِالله بن بُريْدةَ، عن أبيهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سمعَ رجُلًا يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ بأنِّي أشْهدُ أنَّك أنت اللهُ لا إلهَ إلَّا أنتَ، الأحَدُ الصَّمدُ الَّذي لم يَلِدْ ولمْ يُولدْ ولم يكُنْ لهُ كُفوًا أحدٌ، فَقالَ: «**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِالاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»، وَفِي لفظٍ: «**لقدْ سألْتَ اللهَ باسمِه الأعْظمِ**».

(١) أبوداود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٩٩٨)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩١).

○ وفي جامعِ التِّرمذيِّ، وصحيح الحاكمِ[(١)] من حديثِ سعْدِ بْنِ أَبي وقَّاصٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحوْتِ:** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، **إنَّه لمْ يَدْعُ بهَا مسلمٌ فِي شيءٍ قطُّ إلَّا استجابَ اللهُ لهُ**».

○ وفِي الصَّحيحينِ[(٢)] من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ عندَ الكربِ: «**لَا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ، لَا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريمِ**».

○ وفي مسند الإمام أَحْمَدَ[(٣)] أيضًا منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أصابَ أحدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهمَّ إنِّي عبدُك ابنُ عبدِك ابنُ أمتِك، ناصيتِي بيدِك، ماضٍ فِيَّ حكمُكَ، عدْلٌ فِيَّ قضاؤُكَ، أسألُك اللهمَّ بكلِّ اسْمٍ هو لكَ، سمَّيْتَ به نفسَك، أوْ علَّمْتَه أحدًا مِن خلقِك، أوْ أنزلتَه فِي كتابِك أوْ استأْثرْتَ بهِ فِي علمِ الغيبِ عندكَ أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبِي، ونورَ صدرِي، وجِلاءَ حزنِي، وذهابَ همِّي، إلَّا أذهبَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **همَّهُ وحزنَه، وأبدلَه مكانَه فرحًا**»، فقيلَ: يا رسولَ الله، أَلَا نتعلَّمُها؟ قالَ: «**بلَىٰ ينبغِي لمنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها**».

فصل: [الأدعية بمنزلة السلاح]

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدّه فقط، فمتىٰ كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به

(١) الترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم (١/ ٥٠٥).
(٢) البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).
(٣) أحمد (٢/ ٨٦٤).

النكاية في العدو. ومتىٰ تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلّف التأثير.

فإذَا كانَ الدُّعاءُ فِي نفسِه غيرَ صالحٍ، أو الدَّاعي لم يجمَعْ بين قلبِه ولسانِه فِي الدُّعاءِ، أو كَان ثَمَّ مانعٌ منَ الإجابةِ لمْ يحصلِ الأثرُ.

وقدْ دلَّ العقلُ والنَّقْلُ والفطرُ علىٰ أنَّ التقرُّبَ إلَىٰ ربِّ العالمينَ، وطلبَ مرضاتِه، والبرَّ والإحسانَ إلَىٰ خلقِه منْ أعظمِ الأسبابِ الجالبَةِ لكلِّ خيرٍ، وأضدادُها منْ أكبرِ الأسبابِ الجالبَةِ لكلِّ شرٍّ، فما استُجلِبتْ نِعمُ اللهِ تعالَىٰ واستُدْفعَتْ نقمُه بمثلِ طاعتِه والتقرُّب إليْهِ، والإحْسانِ إلَىٰ خَلقِه.

فصل [اقتران الدعاء بحال صاحبه]

وكثيرًا ما تجدُ أدعيةً دعا بها قومٌ، فأستجيبَ لهم، ويكونُ قد اقترَنَ بالدعاءِ ضرورةُ صاحبِه، وإقبالُه علىٰ الله، أو حسنةٌ تقدمَتْ منه جعلَ اللهُ سبحانه إجابةَ دعوتِه شكرًا لحسنتِه، أو صادَفَ وقتَ إجابةٍ ونحو ذلك، فأجيبَتْ دعوتُه؛ فيظنُّ الظانُّ أن السرَّ في لفظ ذلك الدعاءِ، فيأخذُهُ مجردًا عن تلك الأمورِ التي قارنَتْه من ذلك الدَّاعي، وهذا كما إذا استعمَلَ رجلٌ دواءً نافعًا في الوقتِ الذي ينبغي علىٰ الوجهِ الذي ينبغي، فانتفَعَ به، فظنَّ غيرُه أن استعمالَ هذا الدواءِ بمجردِه كافٍ في حصولِ المطلوبِ، كان غالطًا. وهذا موضعٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من الناسِ.

فصل: [الفرق بين حسن الظن والغرور]

وكثيرٌ منَ الجهَّالِ اعتمدُوا علَىٰ رحمةِ اللهِ وعفوِه وكرمِه، وضيَّعُوا أمرَه ونهيَه، ونسُوا أنَّه شديدُ العقابِ، وأنَّه لا يردُّ بأسُه عن القومِ المجرمينَ، ومنِ اعتمدَ علىٰ العفوِ معَ الإصرارِ فهوَ كالمعاندِ.

● وقالَ معروفٌ: رجاؤُك لرحمةِ منْ لَا تطيعُه من الخذلانِ والحمقِ.

• وقدْ ثبتَ فِي الصَّحيحيْنِ(١) مِنْ حديثِ أسامةَ بن زيدٍ، قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يُجَاءُ بالرَّجلِ يومَ القيامةِ فَيُلقَىٰ في النار، فتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بطنِه فيَدُورُ في النَّارِ كما يدُورُ الحمارُ برَحَاه، فيطيفُ به أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يَا فُلانُ، ما أصابَكَ؟! ألم تكُنْ تأمُرُنَا بالمعروفِ وتنْهانَا عنِ المنكرِ؟! فيقولُ: كُنتُ آمرُكُمْ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنْهاكُمْ عنِ المنكرِ وآتِيهِ**».

• وفي المسْندِ(٢) مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إيَّاكمْ ومحقَّرَاتِ الذُّنوبِ، فإنَّهنَّ يجتمعْنَ علىٰ الرَّجلِ حتَّىٰ يهلكنَه**»، وضربَ لهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ مثلًا، كمثلِ قومٍ نزلُوا أرضَ فلاةٍ، فحضرَ صَنيعُ القوْمِ، فجعلَ الرَّجلُ ينطلِقُ فيجيءُ بالعُودِ، والرجلُ يَجيءُ بالعُودِ، حتَّىٰ جمعُوا سوادًا وأَجَّجُوا نارًا، وأنضَجُوا ما قَذَفُوا فِيها.

• وفي صحيحِ البخاريِّ(٣) منْ حديثِ أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كانتْ عندَه لأخيهِ مظْلمةٌ فِي مالٍ أو عِرْضٍ فليأتِه، فليستحلَّهَا منْه قبلَ أنْ يؤخذَ وليسَ عنْده دينارٌ ولا دِرْهمٌ، فإنْ كانتْ لهُ حسناتٌ أُخِذَ من حسناتِه فأُعْطِيَها هذا، وإلا أُخِذَ مِنْ سيِّئاتِ هَذا فطُرِحَتْ عليْهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ**».

• وربَّما اتَّكل بعضُ المغترِّينَ علَىٰ ما يرَىٰ منْ نعمِ اللهِ عليهِ في الدُّنيا وأنَّه لا يُغَيّر مَا به، ويظنُّ أنَّ ذلكَ من محبَّةِ اللهِ لَهُ، وأنَّه يعطِيه في الآخرةِ أفضلَ منْ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنَ الغُرُورِ.

---

(١) البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).
(٢) أحمد (٢/ ٨٨٩).
(٣) البخاري (٢٤٤٩).

• وَقالَ بعضُ السَّلَفِ: إذَا رأيتَ اللهَ يتابعُ نعمهُ عليكَ وأنتَ مُقيمٌ علَىٰ معاصِيه فاحذَرْه؛ فإنَّما هُو استِدْراجٌ يستدْرِجُك بِه.

• وقالَ بعضُ السَّلفِ: رُبَّ مسْتدْرَجٍ بنعمِ اللهِ عليهِ وهوَ لا يعلَم، وَربَّ مغرورٍ بسترِ اللهِ عليهِ وهوَ لا يعلَم، ورُبَّ مفتونٍ بثناءِ النَّاسِ عليْهِ وهُوَ لَا يعلَم.

فصل: [أعظم الناس غرورا]

أعظمُ الخلق غُرورًا مَن اغترَّ بالدنيَا وعاجلِها، فآثَرَها علىٰ الآخرةِ، ورضِي بِها مِنَ الآخرَةِ، حتَّىٰ يقول بعْضُ هؤلاءِ: الدُّنْيَا نقدٌ، والآخرةُ نسيئةٌ، والنَّقدُ أنفعُ منَ النسيئةِ.

وهذَا منْ أعظمِ تلبيسِ الشَّيْطانِ وتسويلِه، والبهائِمُ العجمُ أعقلُ من هؤلاءِ؛ فإن البهيمةَ إذَا خافتْ مضرَّة شيءٍ لم تُقْدِمْ عليْهِ ولو ضُرِبَتْ، وهؤُلاءِ يُقْدِمُ أحدُهم علىٰ عطبِه، وهو بيْنَ مصدِّقٍ ومكذِّبٍ.

فَهذَا الضَّرْبُ إن آمنَ أحدهمْ باللهِ ورسولِه ولقَائِه والجزاءِ، فهُوَ مِنْ أعظمِ النَّاسِ حسرةً؛ لأنَّه أقدمَ علَىٰ علمٍ، وإنْ لم يؤمنْ باللهِ ورسولِه فأبعِدْ لَهُ.

ومنْ حديثِ المستَوْردِ بْنِ شدَّادٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما الدُّنْيا فِي الآخِرةِ إلَّا كما يُدخِلُ أحدُكُمْ أصْبعَهُ في اليَمِّ، فلينظُرْ بِمَ يرْجعُ؟**»[(١)].

وإذَا تأمَّل الإنسانُ حالَه مِن مبْدَأ حالة كونِه نُطفةً إلىٰ حين كمالِه واستِوائِه تبيَّنَ لَهُ أنَّ مَن عنيَ بِه هذهِ العنايةَ، ونقلَه إلىٰ هذه الأحوالِ، وصرَّفهُ في هذهِ الأطْوارِ، لا يليقُ به أنْ يُهملَه ويتركَه سُدىً، لا يأمرُه ولا ينْهاه ولا يعرِّفُه حُقوقَه عليْهِ، ولا يُثيبُه ولا يُعاقبه.

(١) مسلم (٢٨٥٨).

فصل:

فقد تبيَّن الفرقُ بينَ حسنِ الظنِّ والغرورِ، وأنَّ حسنَ الظنِّ إن حملَ علَىٰ العملِ، وحثَّ عليهِ، وساقَ إليْهِ، فهُو صحيحٌ، وإنْ دَعَا إلىٰ البَطَالةِ والانهماكِ في المعاصِي فهُوَ غُرورٌ، وحُسْنُ الظنِّ هو الرَّجاءُ؛ فمنْ كَانَ رجاؤُه حَاديًا لهُ علىٰ الطَّاعةِ، زَاجِرًا له عنِ المعصيةِ؛ فهوَ رجاءٌ صحيحٌ، ومنْ كانتْ بطالتُهُ رجاءً، ورجاؤُه بطالةً وتفْرِيطًا؛ فَهُو المغْرُورُ.

وسِرُّ المسألة: أَنَّ الرَّجاءَ وحُسْنَ الظنِّ إنَّما يكونُ معَ الإتيانِ بالأسبابِ الَّتي اقتضتْها حكمةُ اللهِ في شرعِه، وقَدَرِه، وثوابِه، وكرامتِه، فيأْتي العبدُ بها ثم يُحسنُ ظنَّهُ بربِّه، ويرجُوه أَنْ لا يَكِلَهُ إليهَا، وأنْ يجعلَها مُوْصلةً إِلَىٰ مَا ينفعُه، ويصرف ما يعارضَها، ويبطلُ أثرَها.

فصل: [بين الرجاء والأماني]

وممَّا ينبغِي أن يعلمَ أنَّ منْ رجا شيئًا استلزمَ رجاؤُه أمورًا:

* **أحدُها**: محبَّةُ ما يرجُوهُ.

* **الثَّانِي**: خوفُه من فواتِه.

* **الثَّالثُ**: سعيُه في تحصِيلِه بحسبِ الإمْكَانِ.

وأمَّا رجاءٌ، لا يُقارِنُه شيءٌ مِنْ ذلكَ فهُو مِنْ بابِ الأمَاني، والرَّجاءُ شيءٌ والأمَانِي شيءٌ آخرُ؛ فكلُّ رَاجٍ خائِفٌ، والسَّائِرُ عَلَىٰ الطَّريقِ إذا خافَ أسرعَ السيرَ مخافةَ الفواتِ.

وفِي جامعِ الترمذيِّ[(١)] منْ حديثِ أبِي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ خَافَ أدْلَجَ، ومنْ أدلجَ بلغَ المنزلَ، أَلَا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، أَلَا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ**».

ومَنْ تأمَّلَ أحوالَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهمْ في غايةِ العملِ مع غايةِ الخوفِ، ونحنُ جمعنَا بَين التقصيرِ - بل التفريطِ - والأمْنِ:

• **فهذَا الصدِّيقُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «وددتُ أنِّي شعرةٌ في جَنْبِ عبدٍ مؤمن»[(٢)].
وذُكرَ عنهُ أنَّه كانَ يمسكُ بلسانِهِ ويقولُ: «هذَا أوردنِي المواردَ»[(٣)].

• **وهذَا عمر بن الخطَّاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأَ سُورة الطُّورِ حتَّىٰ بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:٧] فبَكىٰ واشتدَّ بكاؤُه حتَّىٰ مرضَ وعادُوه.

وكانَ يمرُّ بالآيةِ في وردِهِ بالليلِ فتخيفُه، فيبقَىٰ في البيتِ أيامًا يُعاد، يحسبُونه مريضًا.

وكانَ فِي وجْهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَّان أسْودان من البكاءِ[(٤)].

• **وهذا عثمانُ بنُ عفانَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا وقفَ علَىٰ القبرِ يبكِي حتىٰ يبلَّ لحيتَه.
وقال: «لو أنَّنِي بين الجنَّةِ والنَّارِ لا أدرِي إلىٰ أيهِما يُؤمَرُ بي، لاخترتُ أنْ أكونَ رمادًا قبْلَ أنْ أعلَمَ إلىٰ أيهِما أصيرُ»[(٥)].

---

(١) الترمذي (٢٤٥٠).
(٢) أحمد في «الزهد» (١٠٨).
(٣) أحمد في «الزهد» (١٠٩).
(٤) أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١).
(٥) أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

• **وهذا عليُّ بنُ أبي طالبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبكاؤُه وخوفُه، وكان يشتدُّ خوفُه مِن اثنتَيْنِ: طُولِ الأملِ، واتِّباعِ الهوَىٰ، قال: «فأمَّا طولُ الأملِ فيُنْسِي الآخِرةَ، وأمَّا اتِّباعُ الهوَىٰ فيصدُّ عنِ الحقِّ، أَلَا وإنَّ الدنيَا قد ولَّتْ مُدبِرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بنُون، فكُونوا مِن أبْناءِ الآخِرَةِ، وَلَا تكونُوا من أبْناءِ الدنْيا؛ فإنَّ اليوْمَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ»[(١)].

• **وَهَذَا أَبُو الدَّرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يقُولُ: «إِنَّ أشدَّ مَا أخافُ عَلَىٰ نفْسِي يومَ القيامةِ أنْ يُقالَ لِي: يَا أبَا الدَّرداءِ، قدْ علمتَ، فكيفَ عملتَ فيمَا علمتَ؟»[(٢)].

• **وَقالَ البخاريُّ في صحيحِه**: بابُ خوفِ المؤمِن منْ أنْ يحبطَ عملُه وهُو لا يشعر.

• **وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ**: أدركتُ ثلاثينَ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ كلُّهم يخافُ النِّفاق علىٰ نفسِه، مَا منهُمْ أحدٌ يقولُ إنَّه عَلَىٰ إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ.

فصل: [عواقب المعاصي في الأمم السابقة]

فمما ينبْغي أنْ يُعلَم: أنَّ الذُّنوبَ تضُر ولا بدَّ، وأنَّ ضَرَرَها في القلوبِ كضررِ السُّمومِ في الأبْدانِ، علَىٰ اختلافِ درجاتِها في الضَّررِ، وهل في الدُّنيا والآخرةِ شرٌّ وداءٌ إلَّا وسببُه الذُّنوبُ والمعاصِي؟

❊ **فَما الَّذي أخرجَ الأبوينِ منَ الجنةِ**، دارِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ والبهجةِ والسُّرورِ، إلىٰ دارِ الآلامِ والأحزانِ والمصائبِ؟

---

(١) أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٥٣٠).

(٢) ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٧٥).

* **وَمَا الَّذِي أخْرجَ إبليسَ منْ مَلكُوتِ السَّماءِ** وطردَهُ ولعنَهُ، ومسَخَ ظاهرَهُ وباطنَهُ فجُعِلَتْ صورتُهُ أقْبَح صورةٍ وأشنُعها، وباطنُهُ أقبح مِنْ صورتِه وأشْنع؟

* **ومَا الَّذِي غرَّقَ أهلَ الأرضِ كُلَّهمْ** حتَّىٰ عَلا الماءُ فوقَ رُءوسِ الجبالِ؟ وما الَّذِي سلَّطَ الرِّيحَ علىٰ قومِ عادٍ حتَّىٰ ألقتهُمْ موتَىٰ علىٰ وجْهِ الأرضِ كأنَّهمْ أَعجازُ نخلٍ خَاويةٍ، ودمَّرتْ ما مرَّتْ عليْهِ منْ ديارِهم وحُروثِهمْ وزروعِهم ودوابِّهم، حتَّىٰ صارُوا عِبرةً للأممِ إلىٰ يومِ القيامةِ؟

* **ومَا الَّذِي أرسلَ علَىٰ قومِ ثمودَ الصَّيحةَ** حتَّىٰ قطَّعتْ قلوبَهم في أجوافِهم، وماتُوا عن آخرِهم؟

* **وما الَّذِي رفعَ قرىٰ اللوطيَّة** حتَّىٰ سمعتِ الملائكةُ نبيحَ كلابِهم، ثمَّ قلبَها عليْهم، فجعلَ عاليَها سافلَها، فأهلكَهم جميعًا، ثُمَّ أتبعَهم حِجارةً مِنَ السَّماءِ أمْطرَها عليْهم، فجمعَ عليهم مِنَ العقوبَةِ مَا لَمْ يجمَعْه علىٰ أُمَّةٍ غيرِهم، ولإخوانِهم أمثالُها، وما هيَ منَ الظَّالمينَ ببعيدٍ!

* **ومَا الَّذِي أرسلَ علىٰ قومِ شُعيبٍ سَحابَ العذابِ كالظُّللِ**، فلمَّا صارَ فوقَ رؤوسهمْ أمطرَ عليهمْ نَارًا تلظَّىٰ؟

* **ومَا الَّذِي أغرَق فرعونَ وقومَه في البحرِ**، ثُمَّ نُقِلَت أرواحُهم إلىٰ جهنَّم؛ فالأجسادُ للغرقِ، والأرواحُ للحرقِ؟

* **ومَا الَّذي خسفَ بقارُونَ ودارِه ومالِه وأهلِه؟**

* **ومَا الَّذي أهلَك القرونَ منْ بعدِ نوحٍ** بأنواعِ العقوبات ودمَّرها تدْميرًا؟

* **ومَا الَّذي أهلَك قومَ صاحبِ يس بالصيْحَةِ** حتَّىٰ خمدُوا عنْ آخرِهم؟

* **ومَا الَّذِي بعثَ علَىٰ بنِي إسْرائِيل قومًا أولِي بأسٍ شديدٍ**، فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ، وقتلُوا الرِّجالَ، وسبُوا الذريَّةَ والنِّساءَ، وأحرقُوا الدِّيارَ ونهبُوا الأمْوالَ، ثُمَّ بعثهُمْ عليهِمْ مرةً ثانيةً فأهلكُوا ما قدرُوا عَليه وتبَّروا ما عَلَوْا تتبيرًا؟

* **وَمَا الَّذِي سلَّطَ عليْهم أنواع العُقُوباتِ**، مرةً بالقتْلِ والسَّبْيِ وخرابِ البلادِ، ومرَّةً بجوْرِ الملوكِ، ومرَّةً بمسْخِهِمْ قردةً وخنازيرَ؟ وآخِرُ ذلكَ أقْسمَ الربُّ تباركَ وتَعالَىٰ: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

عَنْ عَمْرو بْن مُرَّةَ قال: سمعتُ أبَا البختريِّ يقولُ: أخبرنِي مَنْ سمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**لَنْ يهلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يُعْذَروا مِنْ أنفُسِهِمْ**»[١].

وفي المسندِ[٢] منْ حديثِ ثوبانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجلَ ليُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذنْبِ يصيبُه**».

وفيه[٣] أيضًا عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أنْ تتداعَىٰ عليكُمُ الأممُ من كلِّ أُفُقٍ، كما تداعىٰ الأكلةُ علىٰ قصْعتِهَا**»، قُلنَا: يا رسولَ اللهِ، أمِنْ قلَّةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: «**أنتمْ يومئذٍ كَثيرٌ، ولكنَّكُم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ المهابةُ مِنْ قُلوبِ عدوِّكُمْ، ويُجْعَلُ فِي قُلوبِكُمْ الوَهنُ**»، قالوا: وما الوهنُ؟ قال: «**حُبُّ الحياةِ وكراهةُ الموتِ**».

وفِي المسند والسُّنَنِ[٤] عَنْ أبِي عبيدةَ عنِ عبدِاللهِ بن مسعودٍ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ مَن كانَ قبلكُمْ كانَ إذَا عملَ العاملُ فيهِم بالخطيئَةِ جاءَهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا،**

---

(١) أبو داود (٤٣٤٧).
(٢) أحمد (١٠/ ٥٢٦٧)، وابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢).
(٣) أحمد (١٠/ ٥٢٦٩)، وأبو داود (٤٢٩٧).
(٤) أحمد (٢/ ٨٦٤)، وأبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٨).

فَإِذَا كَان الغدُ جَالسَهُ وَوَاكلهُ وَشاربه، كأَنَّه لمْ يرهُ علىٰ خطِيئةٍ بـالأمْسِ، فلمَّـا رأىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذَلكَ منهمْ ضَرَبَ بقلوبِ بعضهم علَىٰ بعْضٍ، ثُمَّ لعنَهم علىٰ لسانِ نبيِّهم داودَ وعيسَىٰ ابْنِ مريم؛ ذلكَ بمَا عصَوْا وكانوا يعتَدون، والَّذِي نفْسُ محمدٍ بيدِه، لتأمُرُنَّ بالمعْروف ولتنهونَّ عنِ المنْكرِ، ولتأخُذُنَّ علَىٰ يدِ السَّفِيه، ولتأطُرُنَّهُ علَىٰ الحقِّ أطرًا، أو ليضْرِبنَّ اللهُ بقُلوبِ بعضكِمُ علىٰ بعْضٍ، ثم لَيلعَنَنَّكُمْ كَمَا لعنَهمْ».

وذكرَ الإمامُ أحمدُ[(١)] منْ حديثِ جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ قومٍ يُعملُ فِيهم بالمعَاصِي، هُم أعزُّ وأكْثرُ ممن يَعْمَلُهُ لَمْ يُغيِّروهُ؛ إلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**».

وَفِي صَحيحِ البخارِي[(٢)] عَن أنسِ بْنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّكُمْ لتعمَلُونَ أعمالًا هيَ أدقُّ في أعيُنِكُمْ منَ الشَّعْرِ، وإنْ كُنَّا لنعُدُّها علَىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن الموبِقَاتِ».

وفِي الصحيحَيْن[(٣)] منْ حديثِ عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**عُذِّبتِ امْرأةٌ في هرَّةٍ، حَبَسَتْها حتَّىٰ ماتَتْ، فَدَخلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أطْعَمَتْهَا وَلَا سقتْهَا، وَلَا تَركَتْهَا تأْكُلُ منْ خشاشِ الأرْضِ**».

وهاهُنا نكتةٌ دقيقَةٌ يغلطُ فيها النَّاسُ فِي أمر الذنبِ، وهِي أنَّهمْ لَا يروْنَ تأْثيرَهُ في الحالِ، وقدْ يتأخَّرُ تأثيرُه فيُنْسَىٰ، وَيظنُّ العبدُ أنه لا يُغبّر بعد ذلكَ، وأنَّ الأمرَ كما قال القائلُ:

إذَا لمْ يُغبِّر حائِطٌ في وُقوعِهِ ** فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الوُقوعِ غُبَارُ

(١) أحمد (٨/ ٤٤٢٠)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩).
(٢) البخاري (٦٤٩٢).
(٣) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

وسبحانَ اللهِ! ماذا أهلكتْ هذهِ البليةُ من الخلقِ، وكمْ أزالتْ منْ نعمةٍ، وكمْ جلبتْ منْ نقمةٍ، وما أكثرَ المغترِّينَ بهَا من العلماء فضلًا عن الجهَّال، ولم يعلمْ المغترُّ أنَّ الذنبَ ينقُضُ ولوْ بعدَ حينٍ، كَمَا ينقُضُ السُّمُّ وكما ينقُضُ الجرحُ المندَمِلُ علىٰ الغِشِّ والدَّغَل[١].

وقالَ يحيَىٰ بنُ معاذٍ الرَّازِي: «عجبْتُ مِن ذِي عقْلٍ يقولُ في دُعائِهِ: اللهمَّ لا تشمِّتْ بي الأعداءَ، ثُم هو يُشمِّتُ بنفْسِه كلَّ عدوٍّ لَه، قِيل: وكيفَ ذَلك؟! قالَ: يعْصِي اللهَ فيُشْمِتُ به في القيامةِ كلَّ عدوٍّ».

فصل: [آثار الذنوب والمعاصي على القلب والبدن]

وَلِلمعَاصِي منَ الآثَارِ القبيحَةِ المذمومةِ، المضرَّةِ بالقلبِ والبدنِ فِي الدُّنْيا والآخرةِ ما لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

• **فمنْها: حرمانُ العلمِ**، فإنَّ العلمَ نُورٌ يقْذفُه اللهُ في القلبِ، والمعصِيةُ تُطفِئ ذلك النُّورَ.

• **ومنْها: حرمانُ الرِّزْقِ**: وفِي المسند «**إنَّ العبدَ ليحرمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه**»[٢]، وكما أنَّ تقْوىٰ اللهِ مجلبةٌ للرزْقِ، فتركُ التَّقْوىٰ مجلبةٌ للفقْرِ، فَما استُجْلِبَ رزقٌ بمثلِ ترْكِ المعاصِي.

• **ومنْها: وحشةٌ يجدُها العاصِي في قلبِه** وبينَه وبينَ اللهِ لا يُوازنُها ولا يُقارنُها لذَّةٌ أصلًا، ولو اجتمعتْ له لذَّاتُ الدُّنْيا بأسرِها لم تَفِ بتلك الوحشة.

---

(١) الدَّغَل: أصل الدغل الشجر الملتف الذي مكمن أهل الفساد فيه.
(٢) ابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢)، وأحمد (١٠/ ٥٢٦٧).

وهذَا أمرٌ لا يُحسُّ بِه إلا منْ في قلبِه حياةٌ، وما لجرْحٍ بميِّتٍ إِيلامُ، فَلو لم يَتْركِ الذُّنوبَ إِلَّا حذرًا مِنْ وُقوعِ تِلك الوحْشةِ، لَكانَ العاقلُ حرِيًّا بترْكِها.

• ومنْها: **الوحْشةُ الَّتِي تحصُلُ له بينَه وبينَ النَّاسِ**، وَلَا سيَّما أهْلُ الخيرِ مِنهم؛ فإنَّه يجد وحشةً بينَه وبينَهم، وكلَّما قويتْ تِلك الوحشةُ بَعُدَ منْهم ومِنْ مُجالستِهم، وحُرِمَ بركةَ الانتفاعِ بهِمْ، وقَرُبَ منْ حزبِ الشيطانِ بقدرِ مَا بَعُدَ مِن حزبِ الرَّحمنِ، وتقوَىٰ هذهِ الوحشةُ حتَّىٰ تستحْكِمَ، فتقعَ بينَه وبينَ امرأتِه وولدِه وأقاربِه، وبينَه وبينَ نفسِه، فتراهُ مستوْحِشًا مِن نفْسِه.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: إِنِّي لأعصِي اللهَ، فأرَىٰ ذلك فِي خُلُقِ دابَّتِي وامْرأتِي.

• ومنْها: **تعسِير أمورِه عليْه؛ فَلا يتوجَّهُ لأمْرٍ إلا يَجِدُه مُغلقًا دونه** أوْ مُتعسِّرًا عليْه، وَهَذَا كمَا أنَّ منِ اتَّقىٰ اللهَ جعلَ لهُ منْ أمرِه يُسرًا، فمنْ عطَّل التَّقْوىٰ جعلَ لهُ مِنْ أمْرِه عُسرًا، ويا للهِ العجبُ! كيف يَجِدُ العبْدُ أبوابَ الخيْرِ والمصالِح مسدودَةً عنْه وطُرقَها مُعْسرةً عليْهِ، وَهُوَ لا يعلَم مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟!

• ومنها: **ظُلْمَةٌ يجدُها في قلبِه حقيقةً**، يحسُّ بِها كما يحسُّ بظلمةِ الليْلِ البهيمِ إذا ادلَهمَّ[١]، فتصيرُ ظلمةُ المعصيةِ لقلبِه كالظلمَةِ الحسيَّةِ لبصرِه؛ فإنَّ الطَّاعةَ نورٌ، والمعصيةَ ظلمةٌ، وكلَّمَا قويتِ الظُّلمةُ ازدادتْ حيرتُه، حتَّىٰ يقعَ في البدَعِ والضَّلالاتِ والأمورِ المهلكةِ وهوَ لا يشعُر.

قالَ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ: «إِنَّ للحسَنةِ ضياءً في الوجهِ ونورًا في القلبِ وسعةً في الرزقِ وقوةً في البدنِ ومحبَّةً في قلوبِ الخلقِ، وإنَّ للسيئةِ سوادًا في الوجْهِ، وظلمةً في

(١) ادلهمَّ: كَثُفَ واسوَدَّ.

القلبِ، ووَهنًا في البدنِ، ونقصًا فِي الرِّزْقِ، وبغضةً في قُلوبِ الخلقِ».

• **ومنها: أَنَّ المعاصِي تُوهِنُ القلبَ والبدَنَ**، أَمَّا وَهَنُها للقلبِ فأمرٌ ظَاهِرٌ؛ بل لا تزالُ تُوهِنُه حَتَّىٰ تُزِيلَ حياتَهُ بالكليَّةِ.

وأما وَهَنُها للبَدَنِ فإنَّ المؤمنَ قُوَّتهُ من قلبِه، وكلَّما قوِي قلبُه قوِي بَدنُه، وأمَّا الفاجِر فإنَّه -وإنْ كان قويَّ البدنِ- فهُو أضعفُ شيءٍ عنْد الحاجةِ، فتخونُه قُوَّتُه أحوجَ ما يكونُ إلىٰ نفسِه.

وتأمَّل قُوَّةَ أبدَانِ فارِس والرُّومِ كيفَ خانتْهم، أحْوجَ ما كانُوا إليْهَا، وقهرَهُمْ أهلُ الإيمانِ بقوَّةِ أبدانِهِمْ وقلوبِهم.

• **ومنْها: حرمانُ الطَّاعَةِ**، فلوْ لم يكُنْ للذنْبِ عقوبةٌ إلَّا أنه يَصدُّ عنْ طَاعةٍ تكونُ بدلَهُ، ويقطعُ طريقَ طاعةٍ أُخْرَىٰ، فينْقطعُ عليْه طريقُ ثالثةٍ، ثُمَّ رابعَةٍ وهلمَّ جَرًّا، فينقطعُ عنْهُ بالذنْبِ طَاعَاتٌ كثيرَةٌ، كُلُّ واحدةٍ منْهَا خيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيا وما عليْهَا، وَهَذَا كرجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أوْجَبتْ له مرضَةً طويلةً، منعْتُه مِنْ عِدَّةِ أكلاتٍ أطيبَ منْهَا، فاللهُ المستعانُ.

• **ومنْها: أَنَّ المعاصِي تقصِّرُ العمْرَ وتمحقُ بركتَه ولا بُدَّ**؛ فإنَّ البرَّ كما يزيدُ فِي العمرِ، فالفجورُ يقصِّرُ العمرَ.

وسرُّ المسْألةِ أنَّ عمرَ الإنْسَانِ مُدَّةُ حياتِه، ولا حياةَ لهُ إلَّا بإقبالِه علىٰ ربه، والتنعُّم بحبِّه وذكرِه، وإيثارِ مرْضاتِه.

• **ومنها: أنَّ المعاصِي تزرعُ أمثالها ويولِّد بعضُها بعضًا**، حَتَّىٰ يعزَّ عَلَىٰ العبْدِ مفارقتُها والخروجُ منْهَا، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ منْ عقوبَةِ السيِّئَةِ السيِّئَةَ بعدَهَا،

وإنَّ مِنْ ثَوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها.

ولا يزالُ العبْدُ يُعانِي الطَّاعةَ ويأْلفُها ويحبُّها ويؤثرُها حتَّىٰ يُرسلَ اللهُ سبحانَه وتعالَىٰ برحمتِه عليهِ الملائكة تؤزُّه إليْها أزًّا، وتُحرِّضُه عليْهَا، وتُزْعِجُه عَنْ فِرَاشِهِ ومجْلِسِه إليْهَا.

وَلا يزالُ يأْلَفُ المعاصِي ويحبُّها ويؤثرُها حَتَّىٰ يرسلَ اللهُ عليْهِ الشَّياطِينَ، فتؤزُّه إليْها أزًّا.

فالأوَّلُ قوَّىٰ جُنْدَ الطَّاعةِ بالمدَدِ، فصارُوا منْ أكبرِ أعْوانِه، وهَذا قوَّىٰ جُنْدَ المعصيَةِ بالمدَدِ فكَانُوا أعْوَانًا عَلَيْهِ.

• **ومنْها -وَهُوَ منْ أخوفِها علَىٰ العبدِ-: أنَّها تضعفُ القلبَ عنْ إرادتِه**، فتقْوَىٰ إرادةُ المعصيةِ وتضعفُ إرادةُ التوبةِ شيئًا فشيئًا، إلَىٰ أنْ تنسلِخ مِن قلبِه إرادةُ التوبةِ بالكلِّيَّة، فَلو مَاتَ نِصْفُه لما تابَ إلىٰ اللهِ، فَيَأتِي مِنَ الاستغفارِ وتوبةِ الكذَّابينَ باللِّسانِ بشيءٍ كثيرٍ، وقلبُه معقودٌ بالمعصيةِ مصرٌّ عليْها عازمٌ علَىٰ مواقعتِها متَىٰ أمكنَتْه، وهَذا مِنْ أعظمِ الأمْراضِ وأقْرَبِها إلىٰ الهلاك.

• **ومنْها: أنَّه ينسلخُ منَ القلبِ استقباحُها فتصيرُ لهُ عادةً**، فلا يستقبحُ منْ نفسِه رؤيةَ النَّاسِ لهُ، ولا كلامَهُمْ فِيه.

وهذَا عندَ أربابِ الفسوقِ هوَ غايةُ التهتُّكِ وتمامُ اللَّذَّةِ، حتَّىٰ يفتخرَ أحدُهم بالمعصيَةِ، ويحدِّثُ بِهَا مَنْ لم يعلمْ أنَّه عملَها فيقولُ: يا فلانُ، عمِلتُ كذَا وكذَا.

كمَا قالَ النبيُّ ﷺ: «**كلُّ أمَّتِي مُعافًىٰ إلَّا المجَاهرينَ، وإنَّ من الإجهارِ أن يسترَ اللهُ علىٰ العبدِ ثُمَّ يصبحُ يَفْضَحُ نفسَه ويقولُ: يا فلانُ، عملتُ يوم كذَا وكذَا كذا وكذَا،**

فيهتكُ نفسَه، وقدْ باتَ يستره ربُّهُ»[١].

• **ومنْها: أنَّ كلَّ معصيةٍ منَ المعاصِي هِي ميراثٌ عَنْ أمَّةٍ منَ الأُمَمِ الَّتِي أهلكها اللهُ** عَزَّوَجَلَّ.

○ فاللوطيةُ ميراثٌ عن قومِ لوطٍ.

○ وأخذُ الحقِّ بالزَّائدِ ودفعُه بالنَّاقص ميراثٌ عنْ قومِ شُعيبٍ.

○ والعلوُّ فِي الأرْضِ والفسادِ ميراثٌ عنْ فِرْعَوْنَ و قومِه.

○ والتكبُّرُ والتجبُّرُ ميراثٌ عنْ قومِ هودٍ.

○ فالعاصِي لابسٌ ثيابَ بعضِ هذهِ الأممِ، وهمْ أعداءُ اللهِ.

• **ومنْها: أنَّ المعصيةَ سببٌ لهوانِ العبدِ علىٰ ربِّه وسقوطِهِ مِن عينِه.**

قالَ الحسنُ البصريُّ: هانُوا عليْهِ فعصوْه، ولو عزُّوا عليْهِ لعصمَهم. وإِذَا هانَ العبدُ علَىٰ الله لمْ يكرمْه أحدٌ، كمَا قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج:١٨] وإنْ عظَّمهُم النَّاسُ فِي الظَّاهرِ لحاجتِهم إليهِمْ أَوْ خوفًا منْ شرِّهمْ، فهُمْ فِي قلوبِهمْ أحقرُ شيءٍ وأهونُه.

• **ومنْها: أنَّ العبْدَ لا يزالُ يرتكبُ الذنبَ حتَّىٰ يهونَ عليهِ ويصغرَ فِي قلبِه؛** وذلكَ علامةُ الهلاكِ، فإنَّ الذنبَ كلَّمَا صَغُرَ فِي عينِ العبدِ عَظُمَ عندَ اللهِ.

وَقدْ ذكرَ البُخاريُّ فِي صحيحِه عنِ ابْنِ مسعودٍ قَال: «**إنَّ المؤمنَ يرَىٰ ذُنوبَه كأنَّه فِي أصلِ جبلٍ، يخافُ أن يقعَ عليهِ، وإنَّ الفاجرَ يرَىٰ ذنوبَه كذُبابٍ وقعَ علَىٰ أنفِهِ فقالَ**

(١) البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

بِهِ هكذَا؛ فطارَ»[١].

• **ومنْها: أنَّ غيرَهُ منَ النَّاسِ والدوابِّ يعودُ عليهِ شؤمُ ذنوبِه،** فيحترقُ هو وغيرُه بشؤْمِ الذنوبِ والظلمِ.

وقالَ مجاهدٌ: إنَّ البهائمَ تلعنُ عُصاةَ بنِي آدمَ إذَا اشتدَّتْ السَّنَةُ، وأمسكَ المطرُ، وتقولُ: هذَا بشؤمِ معصيةِ ابنِ آدمَ.

• **ومنْها: أنَّ المعصيةَ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛** فإنَّ العزَّ كلَّ العزِّ فِي طاعةِ اللهِ؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبْها بطاعةِ اللهِ؛ فإنَّهُ لا يجدُها إلَّا في طاعتِه.

وَكَانَ منْ دعاءِ بعضِ السلفِ: اللهمَّ أعزَّنِي بطاعتِك، ولا تُذلَّني بمعصيتِك.

وَقالَ الحسنُ البصرِيُّ: إنَّهم وإنْ طقْطقتْ[٢] بهمُ البغالُ وهمْلجت[٣] بهمُ البراذِين[٤]، إنَّ ذُلَّ المعصيةِ لا يفارقُ قلوبَهُمْ، أبىٰ اللهُ إلَّا أن يُذِلَّ مَنْ عصاهُ.

وقالَ عبدُاللهِ بن المباركِ:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ ** وقد يورثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذُّنوبِ حياةُ القلوب ** وخيرٌ لنفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وهَل أفسَد الدِّينَ إلا المُلُوكُ ** وَأَحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبَانُهَا

• **ومنْهَا: أنَّ المعاصِي تُفْسِدُ العقلَ؛** فإنَّ للعقلِ نُورًا والمعصيَةُ تُطْفِئ نُورَ العقلِ

---

(١) البخاري (٦٣٠٨).
(٢) **الطقطقة**: صوت قوائم الخيل علىٰ الأرض الصلبة.
(٣) **الهملجة**: حسن سير الدابة في سرعة.
(٤) **البراذين**: جمع برذون وهو غير العربي من الخيل والبغال.

ولا بُدَّ، وإِذَا طُفِئَ نورُه ضَعُفَ ونَقُصَ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: ما عصَىٰ اللهَ أحدٌ حتَّىٰ يغيبَ عقلُه.

• **ومنْها: أنَّ الذُّنوبَ إذا تكاثَرَتْ طُبِعَ علىٰ قلبِ صاحِبِهَا**، فكَانَ مِنَ الغَافِلِين، كَمَا قالَ بعضُ السَّلفِ فِي قولِه تعالَىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] قالَ: هُوَ الذَّنْبُ بعدَ الذَّنْبِ.

• **ومنْها: أنَّ الذُّنوبَ تُدْخِلُ العبدَ تحتَ لعنةِ رسولِ اللهِ ﷺ**؛ فإنَّه لعنَ علَىٰ معاصٍ وغيرُها أكبرُ منْها، فهيَ أوْلَىٰ بدخولِ فاعلِها تحتَ اللعْنةِ.

○ فَلَعَنَ الواشمةَ والمستوشِمة[١]، والواصلةَ والموصولة[٢]، والنَّامِصَةَ والمتنمِّصةَ[٣]، والواشِرة[٤] والمستوْشرة[٥].

○ ولعنَ آكلَ الرِّبا ومُوكلَه، وكاتبَه وشاهدَيه[٦].

○ ولعنَ المحلِّل والمحُلَّل لَه[٧].

○ ولعنَ السَّارِق[٨].

(١) **الوشم**: أن يغرز الجلد بإبرة ثم يحشىٰ بكحل أو نيل فيزرق أثره أو يخضر. والواشمة هي الفاعلة والمستوشمة هي التي يفعل بها ذلك.

(٢) **الواصلة**: هي التي تصل شعرها بشعر آخر زور، والمستوصلة التي يفعل بها.

(٣) **النامصة**: هي التي تنتف الشعر من وجهها، والمتنمصة التي يُفعل بها.

(٤) **الواشرة**: هي التي تحدد أسنانها وترقق أطرافها، والمستوشرة التي يُفعل بها.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥) من حديث ابن مسعود، ولم يذكر «**الواصلة والمستوصلة**» في هذا الحديث، ولكن ذكراها في حديث ابن عمر عند البخاري (٥٩٤٧)، ومسلم (٢١٢٤)، وذكرها مسلم (٢١٢٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر، و(٢١٢٣) من حديث عائشة.

(٦) مسلم (١٥٩٧).

(٧) أبوداود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥).

(٨) البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

• **ومنها: حرمانُ دعوةِ رسولِ اللهِ ﷺ ودعوةِ الملائكةِ**؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه أمر نبيَّه أن يستغفِر للمؤمنينَ والمؤمناتِ، وقال تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩].

فَهذَا دعاءُ الملائكةِ للمؤمنينَ التَّائبينَ المتَّبعينَ لكتابِه وسنَّة رسولِه ﷺ الَّذينَ لَا سبيلَ لهمْ غيرُهما، فلا يطمعُ غيرُ هؤلاءِ بإجابةِ هذهِ الدعوةِ إذْ لم يتَّصفْ بصفاتِ المدعوِّ لهُ بِها. واللهُ المستعانُ.

فصل: [حديث عظيم في عقوبات المعاصي]

ومنْ عقوباتِ المعاصِي: مَا رواهُ البخارِيُّ في صحيحِه[١] منْ حديثِ سَمُرَةَ بْن جُنْدُبٍ قَالَ: كانَ النبيُّ ﷺ ممَّا يُكثرُ أنْ يقولَ لأصحابِه: «هل رأَىٰ أحدٌ منكُم البارحةَ رؤيَا؟ فَيَقُصُّ عليْه منْ شاءَ الله أنْ يَقُصَّ، وإنَّهُ قالَ لنَا ذات غداةٍ: «إنَّه أتانِي الليلةَ آتيانِ، وإنَّهما ابتعثَانِي، وإنَّهما قالا لِي: انطلقْ، وإنِّي انطلقتُ معهُما، وإنَّا أتيْنَا علَىٰ رجُلٍ مُضْطجعٍ، وإذا آخرُ قائمٌ عليْه بصخْرةٍ، وإذَا هو يهوِي بالصخرةِ لرأسِه، فيثلغُ[٢] رأسهُ فيتدهْدَه[٣] الحجرُ هاهنا فيتبعُ الحجرَ فيأخذَه فلا يرجعُ إليْهِ حتَّىٰ يصحَّ رأسُه كَما كانَ ثُمَّ يعودُ عليْه، فيفْعلُ به مثْلَ ما فعلَ المرَّة الأُولىٰ. قال: قلتُ لهما: سُبحانَ اللهِ! مَا هذانِ؟ قَالَا لي: انطلق انطلقْ.

---

(١) البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).
(٢) **يثلغ**: يشدخ، والشدخ: هو كسر الشيء الأجوف.
(٣) **يتدهده**: يتدحرج.

فانطلقْنا، فأتينَا علىٰ رجلٍ مستلقٍ لقفاهُ، وإذَا آخرُ قائمٌ عليْه بكلوبٍ[١] منْ حديدٍ، وإذَا هُو يأتي أحدَ شقَّيْ وجْهه فَيُشَرْشِرُ[٢] شِدْقَهُ[٣] إلىٰ قفاهُ ومنخرَهُ إلىٰ قفاه وعينَه إلىٰ قفاهُ، ثمَّ يتحوَّلُ إلَىٰ الجانبِ الآخرِ، فيفعلُ به مثلَ مَا فعلَ بالجانبِ الأوَّلِ، فما يفرغُ من ذلك الجانِب حتَّىٰ يصحَّ ذلكَ الجانِبُ كَما كانَ، ثُمَّ يعودُ عليْهِ فيفعلُ مِثل ما فعلَ في المرَّةَ الأُولىٰ. قَالَ: قلتُ: سُبحانَ اللهِ! مَا هذانِ؟ فقالَا لِي: انطلق انطلقْ.

فانطلقْنَا، فأتيْنا علىٰ مثلِ التَّنُّور، وإذَا فِيه لغطٌ وأصْواتٌ، قَالَ: فاطَّلعْنَا فِيه، فإذَا فِيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا همْ يأتيهم لهبٌ من أسفلَ منهُمْ، فإذا أتاهُمْ ذلك اللَّهبُ ضَوْضَوْا[٤] فقالَ: قلتُ: مَا هؤلاءِ؟ قالَ: قالَا لِي: انطلق انطلقْ.

فانطلقْنَا، فأتيْنا علَىٰ نهرٍ أحمرَ مثل الدَّم فإذَا فِي النَّهرِ رجلٌ سابحٌ يسبحُ، وإذَا علَىٰ شطِّ النهرِ رجلٌ قدْ جَمَعَ عندهُ حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحُ، ثمَّ يأتِي ذلكَ الَّذِي قدْ جَمَعَ عندهُ الحجارة فيفْغَرُ له فاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فينطلقُ فيسبحُ، ثم يرجعُ إليه، كُلَّما رَجَعَ إليه فغرَ له فاهُ، فألقمهُ حجرًا، قلتُ لهمَا: ما هذانِ؟ قالا لِي: انطلق انطلقْ.

فانطلقْنَا، فأتيْنَا علَىٰ رجُلٍ كَريهِ المرآةِ[٥]، كأكْرهِ ما أنتَ راءٍ رجلًا مَرْأىً، وإذا هو عندهُ نارٌ يَحُشُّها[٦] ويسْعَىٰ حولَهَا، قال: قُلتُ لَهُمَا: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلقْ.

---

(١) **الكلوب**: حديدة معوجة الرأس.

(٢) **يشرشره**: يشقه ويقطعه.

(٣) **الشدق**: جانب الفم.

(٤) **ضوضوا**: ضجُّوا واستغاثوا.

(٥) أي: سيئ المنظر.

(٦) **يحشها**: يوقدها.

فانطلقْنَا حتَّىٰ أتيْنا علَىٰ روضةٍ معتمةٍ فيها مِنْ كلِّ لونِ الرَّبيعِ، وإذا بين ظهراني الروضةِ رجلٌ طويلٌ، لا أكادُ أَرىٰ رأسَهُ طُولًا في السَّماء، وَإِذَا حولَ الرَّجلِ من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطُّ، قال: قُلتُ: ما هذا؟ ومَا هؤُلَاء؟ قالَ: قَالَا لي: انطلق انطلقْ.

فانطلقْنا، فأتينا إلىٰ دوحةٍ عظيمةٍ لم أرَ دوحةً قطُّ أعظم منها ولا أحسنَ، قال: قالا لي: ارْقَ فيها، فارتقينَا فيْها إلىٰ مدينةٍ مبنيةٍ بلبنِ ذهبٍ ولبنِ فضةٍ، قال: فأتينَا بابَ المدينَةِ فاستفتحْنَا ففُتِحَ لنَا، فدخلنَاها فتلقانا رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ منهم كأقبحِ ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذْهبُوا فقعُوا في ذلكَ النهرِ، قالَ: وإذا نهرٌ معترضٌ يجري كأنَّ ماءهُ المحضُ[١] في البياضِ، فوقعُوا فِيه، ثُمَّ رجعُوا إليْنَا، وقد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم، قالَ: قالَا لي: هَذِه جنةُ عَدنٍ، وَهاذاك منزلُكَ.

قَالَ: فسمَا بَصري صُعُدًا، فَإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ[٢] البيضَاءِ، قَالَ: قَالَا لِي: هذَا منزلُك، قال: قلتُ لهما: باركَ اللهُ فيكُما، فذرَاني فأدخُله. قالَا: أَمَّا الآنَ فلَا، وأنْتَ دَاخِلهُ.

قَالَ: قلتُ لهما: فإنِّي رأيتُ منذُ الليلةِ عَجبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رأيتُ؟! قَالَ: قَالَا لِي: أَمَا إنَّا سنخبِرُك.

أَمَّا الرجلُ الأوَّلُ الذي أتيتَ عليه يُثْلَغُ رأسُهُ بالحجرِ؛ فإنه الرجلُ يأخذُ بالقرآن فيرفضُهُ وينامُ عنِ الصَّلاةِ المكتوبةِ.

وأمَّا الرجلُ الَّذي أتيْتَ عليه يُشرْشَرُ شِدقُه إلىٰ قفاهُ ومنخرُه إلىٰ قفاهُ، وعينُه إلىٰ قفاهُ؛ فإنَّه الرَّجلُ يغدُو من بيتِه فيكذِبُ الكذبةَ تبلُغ الآفاقَ.

---

(١) **المحض**: الخالص من كل شيء.

(٢) **الربابة**: السحاب الذي ركب بعضه بعضًا.

وأمَّا الرِّجالُ والنساءُ العُراةُ الَّذينَ هم في مثلِ بناءِ التَّنُّور، فإنَّهم الزُّنَاةُ والزَّواني.

وأمَّا الرجلُ الَّذي أتيْتَ عليْهِ يسبحُ في النهْرِ ويلقمُ الحجارةَ؛ فإنَّه آكلُ الرِّبا، وَأَمَّا الرَّجلُ الكريهُ المرآةِ الذي عِنْدَ النَّارِ يحشُّها ويسْعَىٰ حولَها؛ فإنَّه مالكٌ خازنُ جهنَّمَ.

وأمَّا الرجلُ الطويلُ الَّذي فِي الرَّوْضَةِ؛ فإنَّه إبراهيمُ ﷺ.

وأمَّا الولدانُ الَّذينَ حولَه، فكلُّ مولودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرةِ - وَفِي رواية البرقاني: وُلِدَ علىٰ الفطرةِ - فقالَ بعضُ المسلمينَ: يا رسولَ اللهِ، وأوْلادُ المشْرِكينَ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: وأولادُ المشْرِكِينَ.

وأمَّا القومُ الذينَ كانُوا شطرٌ منهُم حَسنٌ وشطرٌ قبيحٌ؛ فإنَّهمْ قومٌ خلطُوا عملًا صالحًا وآخَر سيِّئًا تجاوزَ اللهُ عنْهُمْ».

فصل: [من آثار الذنوب والمعاصي في الأرض]

* ومنْ آثارِ الذُّنوبِ والمعاصِي: **أنَّها تحدِثُ في الأرْضِ أنْوَاعًا مِنَ الفسادِ في المياهِ والهوَاءِ والزُّروعِ والثِّمارِ والمسَاكنِ**. قَال تعالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

* ومنْ تأثيرِ المعاصِي فِي الأرْضِ: **مَا يحلُّ بِهَا مِن الخسْفِ والزَّلازِلِ ومحقُ بركتِها**، وقدْ مرَّ رَسولُ اللهِ ﷺ علَىٰ ديارِ ثمود[(١)]، فمنعَهُمْ منْ دخولِ ديارِهِمْ، ومِنْ شربِ مياهِهِمْ، ومنَ الاستسقاءِ من آبارِهم، حتَّىٰ أَمَرَ أنْ يُعلفَ العجينُ الَّذِي عُجِنَ بمائهم للنَّواضحِ[(٢)]؛ لتأثيرِ شؤمِ المعصيةِ فِي الماءِ، وكذلكَ شؤمُ تأثيرِ الذُّنوبِ فِي نقْصِ الثِّمارِ وَمَا تُرمَىٰ بِهِ مِنَ الآفَاتِ.

(١) البخاري (٣٣٧٨)، ومسلم (٢٩٨١).
(٢) **النواضح**: الإبل التي يستقىٰ عليها.

فصل: [من عقوبات الذنوب والمعاصي]

* ومنْ عقوباتِ الذُّنوبِ: **أنَّها تطفئُ من القلبِ نَار الغيْرةِ** الَّتِي هِيَ لحياتِه وصلاحِه كالحرارَةِ الغريزيَّةِ لحياةِ جميعِ البدَن؛ فالغيْرَةُ حرارتُه ونارُه الَّتي تُخرِجُ مَا فِيه من الخبثِ والصِّفاتِ المذمُومَةِ، كمَا يُخرجُ الكيرُ[١] خبثَ الذهبِ والفضَّةِ والحديدِ، وأشْرفُ النَّاسِ وأعلاهُمْ همَّةً أشدُّهم غيرةً عَلَىٰ نفسِه وخاصَّتِه وعُمومِ النَّاسِ.

وَفِي الصَّحيح[٢] أنَّهُ قالَ: «**لَا أحدَ أغيرُ منَ اللهِ، مِنْ أجْلِ ذلكَ حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منْها ومَا بطنَ، ولا أحدَ أحبُّ إليْه العذْرُ منَ اللهِ، مِن أجلِ ذلكَ أرسلَ الرُّسلَ مبشِّرينَ ومنذرينَ، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من اللهِ، مِن أجلِ ذلك أثنىٰ عَلىٰ نفسِهِ**».

* ومِنْ عقوباتَها: ذهابُ الحياءِ الذِي هو مادَّةُ الحياةِ للقلبِ، وهو أصلُ كلِّ خيرٍ، وذهابُه ذهابُ الخيرِ أجمعِه.

وفي الصحيحِ[٣] عنه ﷺ أنه قال: «**الحياءُ خيرٌ كُلُّه**».

وقال: «**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ الناسُ مِن كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولىٰ: إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شِئْتَ**»[٤].

والمقصودُ: أنَّ الذنوبَ تُضعِفُ الحياءَ منَ العبدِ، حتَّىٰ ربَّما انسلخَ منْه بالكليَّة، حَتَّىٰ إنه ربَّما لا يتأثَّرُ بعلمِ النَّاسِ بسُوءِ حالِه ولا باطِّلاعِهم عليه؛ بل كثيرٌ منهُم يُخبِرُ عَنْ حالِه وقبْحِ ما يفعلُه، والحاملُ لَه علَىٰ ذلكَ انسلاخُه منَ الحياءِ، وإذَا وصَلَ العبْدُ إلىٰ هذهِ الحالِ لم يبْقَ في صَلَاحِه مطْمعٌ.

---

(١) **الكير**: الزِّق الذي ينفخ به النار.
(٢) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).
(٣) مسلم (٣٧)، من حديث عمران بن حصين.
(٤) البخاري (٣٤٨٣).

* ومنْ عقوباتِ الذُّنوبِ: **أنَّها تُضعفُ في القلبِ تعظِيم الربِّ جَلَّ جلالُه** وتُضعِفُ وَقَارَهُ فِي قلبِ العبْدِ ولا بُدَّ، شَاء أَمْ أَبَىٰ، وَلوْ تمكَّنَ وقارُ اللهِ وعظمتُه فِي قلبِ العبْدِ لما تجرَّأ عَلَىٰ معاصِيهِ.

* ومنْ بعضِ عقوبةِ هَذا: **أنْ يَرفع اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **مَهابتَه**[١] **مِن قُلوبِ الخلقِ**، ويهونُ عليهِمْ، ويستخِفُّونَ بِهِ، كَما هانَ عليْه أمرُه واستخفَّ بِهِ، فعلَىٰ قدْرِ محبَّةِ العبْدِ للهِ يُحبُّه النَّاسُ، وعلىٰ قدْرِ خَوْفِه مِن اللهِ يخافُه الناس، وعلَىٰ قدْرِ تَعظِيمِه للهِ وحُرُمَاتِه يُعظِّم النَّاسُ حُرمَاتِه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

* وَمِنْ عُقُوباتِها: **أنَّها تستدعِي نسيانَ اللهِ لعبدِه وتَرْكَه، وتخليتَه بينَه وبينَ نفسِه وشيطانِه**، وهناكَ الهلاكُ الَّذي لا يُرجَىٰ مَعه نجاةٌ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٨-١٩].

* وَمِنْ عُقوبَاتِها: **أنَّها تُخرِجُ العبْدَ منْ دائرةِ الإحسانِ، وتمنعُه ثوابَ المحسنينَ.**

فإنْ أرادَ اللهُ بِه خيرًا أقرّه فِي دائرَةِ عُموم المؤمنِينَ، فإنْ عَصاهُ بالمعاصِي الَّتي تُخرجُه مِن دائرةِ الإيمانِ كَما قالَ النبيُّ ﷺ: «**لَا يزْنِي الزَّاني حِينَ يزْنِي وهوَ مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا ينْتَهِبُ نُهبةً ذاتَ شرفٍ يرفعُ إليهِ فِيها الناسُ أبصارَهُمْ حِينَ ينتهبُها وهُو مُؤمِنٌ**»[٢] فإيَّاكمْ إياكمْ، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ = خرَج من دائرة الإيمان، وفاته رفقةُ المؤمنين وحسنُ دفاع الله عنهم، فإنّ الله يدفع عن الذين آمنوا، وفاته كلُّ خير رتّبه الله في كتابه علىٰ الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كلُّ خصلة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

---

(١) أي مهابة صاحب المعصية.

(٢) البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

* ومنْ عقوباتِها: **أنَّها تضعفُ سيْرَ القلبِ إلىٰ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ.**

فالذَّنبُ إمَّا أن يميتَ القلبَ، أو يمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعفَ قوَّتَه ولا بد، حتَّىٰ ينتهي ضعفُه إلىٰ الأشْياءِ الثَّمانيةِ الَّتِي استعاذَ مِنها النبيُّ ﷺ وهِي: «**الهَمُّ والحزنُ، والعَجْزُ والكسلُ، والجبْنُ والبُخْلُ، وضلعُ الدَّين، وغلبةُ الرِّجَال**»، وكلُّ اثنيْن منْها قَرينَانِ.

والمقصُودُ: أنَّ الذنُوبَ منْ أقْوىٰ الأسْبابِ الجالبةِ لهذِه الثمانيةِ، كما أنَّها منْ أَقْوىٰ الأسبابِ الجالبةِ لجهدِ البلاءِ، ودَرَكِ الشَّقاءِ، وسُوءِ القضاءِ، وشَماتةِ الأعْداءِ، ومَنْ أَقوىٰ الأسْبابِ الجالبةِ لِزَوالِ نِعَمِ اللهِ، وتحوُّلِ عافِيتِه، وفجاءةِ نقْمتِه، وجَميعِ سخطِه.

* وَمِنْ عُقوبَاتِ الذُّنوبِ: **أنَّها تزيلُ النِّعمَ وتحلُّ النِّقَمَ**، وقدْ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وقدْ أحسنَ القائلُ:

إذا كنتَ في نِعْمَةٍ فارْعَهَا ** فإنَّ المعَاصِي تُزيلُ النِّعَمْ
وحُطْها بطَاعَةِ رَبِّ العِبَادِ ** فَرَبُّ العِبَادِ سَريعُ النِّقَمْ
وإيَّاك والظُّلمَ مَهْمَا استطعْتَ ** فَظُلمُ العبادِ شديدُ الوَخَمْ[1]

(١) **الوخم**: الثقل.

وســـــافِرْ بِقلبِــــكَ بَـــيْنَ الـــورَىٰ ** لِتُبصِـــرَ آثــارَ مَـــنْ قــدْ ظَلَـــمْ
فتلــــكَ مَسَـــاكنُهُمْ بَعْـــدَهُمْ ** شُـــهودٌ عَلـــيهِم وَلَا تَـــتَّهِمْ
وَمَــا كَــانَ شَــيءٌ عَلَــيهِمْ أَضــرَّ ** مِـنَ الظُّلـمِ، وهـوَ الـذي قَـدْ قَصَـمْ
فَكَـــمْ تَركُـــوا مِـــنْ جِنَـانٍ ومــن ** قُصُــورٍ وأخــرَىٰ علــيْهم أَطَــمّ[(١)]
صُـــلوا بـــالجحيمِ وفـــاتَ النَّعـــيمُ ** وكــانَ الـــذي نَـــالَهُمْ كـــالحُلُمْ

* ومنْ عقُوباتِها: **مَا يُلقِيهِ اللهُ سبحانَه مِنَ الرُّعْبِ والخوفِ في قلبِ العاصِي**؛ فلَا تراهُ إِلَّا خَائِفًا مرعوبًا، فإنَّ الطَّاعةَ حصنُ اللهِ الأعظمُ الَّذِي مَنْ دخلَه كانَ منَ الآمِنينَ منْ عقوبَةِ الدنْيا والآخرةِ.

* ومنْ عقوباتِها: **أَنَّها تُوقِعُ الوحْشةَ العظيمةَ فِي القلبِ**، كَمَا قيلَ:

فـإنْ كنـتَ قَـدْ أوْحَشَـتْكَ الـذنوبُ ** فَـــدَعْهَا إذا شِـــئْتَ واســـتأنسِ

وسرُّ المسألةِ: أنَّ الطاعةَ توجبُ القربَ مِن الربِّ سُبحانه فكلَّما اشتدَّ القربُ قوِي الأنسُ، والمعصيةُ تُوجبُ البعدَ منَ الربِّ، وكلَّما ازدَاد البعْدُ قويتِ الوحشةُ.

والوَحْشَةُ سببُها الحجابُ، وكلَّما غلُظَ الحجابُ زادتِ الوحشةُ، فالغفلةُ توجبُ الوحشةَ، وأشدُّ منهَا وحشةُ المعصيةِ، وأشدُّ منها وحشةُ الشِّركِ والكفرِ، ولا تجدُ أحدًا يلابسُ شيئًا مِن ذلكَ إلَّا ويعلُوه مِن الوحشةِ بحسْبِ ما لابسهُ مِنه؛ فتعلُو الوحشةُ وجهَهُ وقلبَه، فَيَسْتَوحِشُ ويُسْتَوحَشُ مِنْهُ.

ومنْ عقوبَاتِها: **أَنَّها تصرفُ القلبَ عنْ صحَّتِه واستقامتِه إلىٰ مرضِه وانحرافِه**؛ وقدْ أجمعَ السَّائرونَ إلىٰ اللهِ أنَّ القلوبَ لا تُعْطَىٰ مُنَاهَا حتَّىٰ تصلَ إلىٰ مولَاها، ولا

---

(١) **أُطُم**: الأُطُم: بناء مرتفع، وجمعه آطام.

تصلُ إلىٰ مولاهَا حتَّىٰ تكونَ صحيحةً سليمةً، ولَا تكونَ صحيحةً سليمةً حتَّىٰ ينقلبُ داؤُها فيصيرُ نفسَ دوائِها، ولا يصحُّ لهَا ذلك إلَّا بمخالفةِ هَواهَا، فهَوَاهَا مَرضُها، وشِفَاؤُها مُخالفتُه، فإن استحكَم المرضُ قتلَ أو كَادَ.

إذا كان هذا فِعْلَ عَبْدٍ بنفسهِ ❊❊ فَمَنْ ذا له مِنْ بعد ذلك يُكْرِمُ؟

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

❊ ومِنْ عقوباتِها: **أنَّها تعمِي بصيرة القلبِ، وتطمسُ نورَه**، وتسدُّ طُرقَ العلمِ، وتحجبُ موادَّ الهدايةِ. ولا يزالُ هذا النورُ يضعفُ ويضمحلُّ، وظلامُ المعصيةِ يَقْوىٰ حَتَّىٰ يصِير القلبُ في مثْلِ الليلِ البَهيمِ، كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ هَذِه القبورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَىٰ أهلِهَا ظُلمةً، وإنَّ اللهَ مُنَوِّرُهَا بصَلاتي عليْهِم**»(١).

❊ ومنْ عقوباتِها: **أنَّها تصغِّر النفسَ وتقمعُها، وتدسِّيها وتحقِّرها، حتىٰ تصيرَ أصغرَ شيءٍ وأحقرهُ**، كمَا أنَّ الطاعةَ تنمِّيها وتُزكِّيها وتُكبِّرُها، قال اللهُ تَعالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

❊ ومنْ عقوباتِها: **أَنَّ العاصِي دائمًا فِي أسْرِ شيْطانِه وسجْنِ شهواتِه**، وإذا تقيَّد القلبُ طرقتْه الآفاتُ مِن كلِّ جانبٍ بحسْبِ قيُودِهِ؛ ومَثَلُ القلبِ مثلُ الطَّائِر، وكُلَّما عَلا بَعُدَ عنِ الآفاتِ، وكلَّما نزلَ احتوشتْه الآفاتُ.

وأصلُ هذا كلِّه: أنَّ القلبَ كلَّما كانَ أبعدَ مِن اللهِ كانتِ الآفاتُ إليهِ أسرعَ، وكلَّما قربَ من اللهِ بعدتْ عنه الآفاتُ، والبعدُ من اللهِ مراتبُ، بعضُها أشدُّ من بعضٍ؛ فالغفلةُ تُبعدُ العبْدَ عنِ الله، وبُعْدُ المعصيةِ أعظمُ مِن بُعْدِ الغفْلَةِ، وبُعْدُ البِدعةِ أعظمُ من بُعْدِ

(١) مسلم (٩٥٦).

المعصِية، وبُعْدُ النِّفاقِ والشِّرْكِ أعظمُ مِن ذلك كلِّه.

* ومنْ عقوباتِها: **سقوطُ الجاهِ والمنزلَةِ والكرامَةِ عندَ اللهِ وعندَ خلقِه**؛ فإنَّ أكرمَ الخلقِ عِند اللهِ أتقاهُمْ، وأقربَهم منهُ منزلةً أطوعهمْ له، وعلىٰ قدْرِ طاعةِ العبدِ له تكُونُ منزلتُه عندهُ؛ فَإِذَا عَصَاهُ وخَالَفَ أمرهُ سقطَ من عينِه؛ فأسقطَه من قلوبِ عبادِه.

ومنْ أعظمِ نعمِ اللهِ علَىٰ العبدِ: أنْ يرفعَ لهُ بينَ العالمينَ ذكرَه، ويُعليَ قدْرَه، ولهذا خصَّ أنبياءَه ورسلَه منْ ذلكَ بِمَا ليسَ لغيرِهم، كَمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٥-٤٦] أي: خَصصْنَاهُمْ بخصيصَةٍ، وَهُو الذكرُ الجميلُ الَّذِي يُذكرُونَ بِهِ فِي هذه الدَّارِ، وهُو لِسانُ الصِّدْقِ الَّذِي سألَه إبراهيمُ الخليلُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ قالَ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وقالَ سبحانَه عنه وعنْ بَنِيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم:٥٠]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح:٤] فأتباعُ الرُّسُلِ لهمْ نصيبٌ من ذلكَ بحسْبِ ميراثِهم منْ طاعتِهم ومتابعتِهم، وكلُّ منْ خالفَهم فَاتَه مِن ذلكَ بحسْبِ مخالفتِهم ومعصيَتِهم.

* ومَنْ عقوبَاتها: **أَنَّها تسْلبُ صاحبَها أسماءَ المدحِ والشَّرفِ وتكسوهُ أسماءَ الذَّمِّ والصَّغارِ**، فتسلبُه اسمَ المؤمِن والبرِّ والمحسنِ والمتَّقِي والمطِيعِ والمنيبِ والوليِّ والورعِ والصَّالحِ والعابِد والخائفِ والأوَّابِ والطيِّب والمرضيِّ ونحوِها.

وتكسوهُ اسمَ الفاجِرِ والعَاصِي والمخالِف والمسِيء والمفسْدِ والخبيثِ والمسْخُوطِ والزَّانِي والسَّارِق والقاتِل والكَاذبِ والخائنِ واللُّوطِيِّ وقاطعِ الرِّحمِ والغادرِ وأمثالِها، فهذِه أسماءُ الفسوقِ و﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١] الَّذِي توجِبُ غضبَ الدَّيَّانِ ودخولَ النيرانِ وعيْشَ الخزْيِ والهوانِ.

* ومن عقوباتِها: **أنَّها تُؤثِّر بالخاصيَّةِ في نُقصانِ العقْلِ**، فلا تجدُ عاقلَيْنِ أحدُهما مطيعٌ للهِ والآخرُ عَاصٍ، إلَّا وعقْلُ المطيعِ منْهما أوْفرُ وأكملُ، وفكرُه أصحُّ، ورأيُه أسدُّ، والصَّوابُ قرِينُه.

ولهذا تجدُ خِطابَ القرْآنِ إنَّما هُو مَع أُولِي العقولِ والألبابِ كقولِه: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩] ونظائرُ ذلكَ كثيرةٌ.

* ومنْ أعظمِ عقوباتِها: **أنَّها توجبُ القطيعةَ بين العبدِ وبين ربِّه تبارك وتعالَىٰ**، وإذَا وقعتِ القطيعةُ؛ انقطعتْ عنه أسبابُ الخيرِ، واتصلتْ بِه أسبابُ الشرِّ. **قال بعضُ السَّلفِ**: رأيتُ العبدَ مُلقًى بينَ اللهِ سبحانه وبينَ الشيطانِ؛ فإنْ أعرَضَ اللهُ عنه تولَّاه الشيطانُ، وإنْ تولَّاه اللهُ لم يقدرْ عليهِ الشيطانُ، وقدْ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٠].

* ومنْ عقوباتِها: **أنَّها تمحقُ بركةَ العُمْرِ، وبركةَ الرزْقِ، وبركةَ العلمِ، وبركةَ العملِ، وبركةَ الطَّاعَةِ**. وبالجمْلةِ تمحقُ بركةَ الدِّينِ والدُّنيا، فَلا تجِدُ أقلَّ بركةٍ في عُمرِه ودينِه ودنياهُ ممنْ عصىٰ اللهَ، وما مُحِقتِ البركةُ من الأرضِ إلَّا بمعاصِي الخلقِ، قَال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وفِي الحديثِ: «**إنَّ رُوحَ القدُسِ نَفَثَ في روعي أنَّه لنْ تموتَ نفسٌ حتَّىٰ تستكمِلَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ، فإنَّه لا يُنالُ ما عِنْدَ اللهِ إلا بطاعتِهِ**»[1]. و«**إنَّ اللهَ جعلَ الرَّوحَ والفَرحَ في الرِّضَىٰ واليقينِ، وجَعَلَ الهَمَّ والحُزْنَ في**

(١) ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢).

الشَّكِّ والسُّخْطِ»[(١)].

وليستْ سعةُ الرزقِ والعملِ بكثرتِه، ولا طـولُ العمْـرِ بكثْـرةِ الشُّـهورِ والأعْـوَامِ، ولكنْ سعةُ الرِّزْقِ والعُمْرِ بالبَركةِ فِيه.

* ومنْ عقوباتِها: **أَنَّها تجْعلُ صاحِبَها منَ السِّفلةِ بعدَ أنْ كانَ مُهيئًا لأنْ يكونَ من العِلية**، فإنَّ اللهَ خلقَ خلقَه قسميْنِ: عِليَةً وسِفْلَةً، وجعل عِلِّيينَ مستقرَّ العليـةَ، وأسـفلَ سافلينَ مُستقرَّ السِّفْلَةِ.

فَكُلَّما عملَ العبدُ معصيةً نزلَ إلَىٰ أسفلِ درجـةٍ، ولا يـزالُ في نـزولٍ حتَّـىٰ يكـونَ منَ الأسفلينَ، وكلَّما عمـلَ طاعـةً ارتفـعَ بهـا درجـةً، ولا يـزالُ فِـي ارتفـاعٍ حتَّـىٰ يكـونَ من الأعْلَيْن.

* ومنْ عقوباتِها: **أَنَّها تجرِّئُ علىٰ العبْدِ مَـنْ لـم يكُـنْ يجتـرئ عليْـه مِـن أَصـنافِ المخلُوقَاتِ**.

قال بعضُ السَّلَف: إنِّي لأعصي اللهَ فأعرفُ ذلكَ في خُلُقِ امرأتي ودابَّتِي.

وَكذلكَ يجترئُ عليْهِ أولياءُ الأمْرِ بالعقوبةِ الَّتِي إِنْ عَدلُوا فِيها أقامُوا عليْه حُـدودَ اللهِ، وكذلك تجترئُ عليْهِ نفسُـه فتتأسَّـدُ عليْـه وتستصْعِبُ عليْـهِ، فلـو أرادَهـا لخيـرٍ لـم تطاوِعْهُ ولـم تَنْقَدْ لَهُ، وتسُوقُهِ إلىٰ ما فِيه هلاكُه، شَاءَ أمْ أَبَىٰ.

وذلكَ لأنَّ الطاعةَ حِصنُ الربِّ تبارك وتعالىٰ الَّذِي مَنْ دخلَه كان منَ الآمنينَ.

* ومِنْ عُقوباتِهـا: **أَنَّهـا تخـونُ العبْـدَ أحـوجَ مـا يكـونُ إلـىٰ نفْسِـه**، فَـإِنَّ كـلَّ أحـدٍ محتاجٌ إلىٰ معرفةِ مَا ينفعُه وما يضرُّه في معاشِه ومعـادِه، وأعْلـمُ النَّـاسِ أعـرفُهمْ بـذلِكَ علَىٰ التفْصِيلِ.

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٠٥١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١).

والمعاصِي تخونُ العبْدَ أحوجَ مَا كانَ إلىٰ نفسِه في تحصيلِ هذا العلمِ، وإيثارُ الحظِّ الأشْرفِ العَالي الدَّائمِ علىٰ الحظِّ الخسِيس الأدْنَىٰ المنقطِعِ، فتحجُبُه الذُّنوبُ عَنْ كمالِ هذا العلمِ، وعَنِ الاشْتِغالِ بِمَا هُو أوْلىٰ بِه وأنفَعُ لهُ في الدَّارَيْنِ.

* ومنْ عُقوباتِها: **أنَّها تَعمِي القلبَ**، فَإنْ لم تعمِه أضعفَتْ بصيرتَهُ وَلَا بدَّ، فإذَا عمِي القلبُ وضعُفَ فاتَهُ منْ معرفَةِ الهدَىٰ وقوَّته علىٰ تنفيذِه في نفسِه، وفي غيره بحسْبِ ضعفِ بصيرَتِه وقوَّتِه، فَإنَّ الكمالَ الإنسانِيَّ مَدارُه علَىٰ أصْلَيْنِ: معرفةِ الحقِّ منَ الباطِلِ، وإيثارِه عليْهِ.

ومَا تفاوتَتْ منازِلُ الخلقِ عند اللهِ تعالَىٰ فِي الدُّنْيا والآخرةِ إلَّا بِقَدرِ تفاوتِ منازِلِهم في هذينِ الأمريْنِ، وهُمَا اللَّذانِ أثْنَىٰ اللهُ سبحانَه علَىٰ أنبيائِه بهما في قولِه تعالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥].

فـ﴿ٱلْأَيْدِى﴾ القوىٰ في تنفيذِ الحقِّ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: البصائرُ في الدينِ، فوصفَهم بكمالِ إدراكِ الحقِّ وكمالِ تنفيذِه.

وانقسمَ النَّاس في هذَا المقامِ أربعةَ أقسامٍ:

- فهؤلاءِ أشرفُ الأقسامِ منَ الخلقِ وأكرمُهم علىٰ اللهِ.
- **القسمُ الثَّانِي**: عكس هؤلاءِ، لا بصيرةَ فِي الدِّين، ولا قوَّةَ علَىٰ تنفيذِ الحقِّ، وهمْ أكثر هذا الخلقِ، الَّذينَ رُؤْيتُهمْ قذىٰ العيونِ وحُمَّىٰ الأرواحِ، وسقمِ القلوبِ، يضيقونَ الديارَ، ويغلون الأسعارَ، ولا يُستفادُ بصُحْبَتِهم إلَّا العَارُ والشنارُ.
- **القسمُ الثَّالثُ**: مَنْ لهُ بصيرةٌ بالحقِّ ومعرفةٌ بهِ، لكنَّه ضعيفٌ لَا قُوَّةَ لهُ علَىٰ تنفيذِه ولا الدعوةِ إليهِ، وهذَا حالُ المؤمنِ الضعيفِ، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلَىٰ اللهِ مِنْه.

• **القسْمُ الرَّابعُ**: منْ لهُ قوَّةٌ وهمَّةٌ وعزيمةٌ، لكنَّهُ ضعيفُ البصيرةِ في الدِّينِ، لا يكادُ يميِّزُ بينَ أولياءِ الرحمنِ وأولياءِ الشَّيْطانِ، بَل يحسبُ كُل سَوداءَ تمرةً، وكلَّ بيضاءَ شَحْمةً، يحسبُ الورَمَ شَحمًا، والدَّواءَ النافِع سُمًّا.

وَلَيسَ فِي هؤلاءِ مَنْ يصلُح للإمامةِ في الدِّينِ، ولا هُوَ موضِعًا لَهَا سِوىٰ القسمِ الأوَّلِ.

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] فأخبرَ سبحانَه أنَّ بالصبْرِ واليقينِ نالُوا الإمامةَ فِي الدِّينِ، وهؤلاءِ همُ الَّذينَ استثنَاهُمُ اللهُ سبحانَهُ من جملةِ الخاسرينَ، وأقسمَ بالعصرِ - الذي هُو زمنُ سعْيِ الخاسرينَ والرَّابِحينَ - علىٰ أنَّ مَنْ عدَاهم فهوَ منَ الخاسرينَ.

فقال تعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، فلم يكتفِ منهمْ بمعرفةِ الحقِّ والصبْرِ عليهِ؛ حتَّىٰ يُوصيَ بعضُهم بعضًا به، ويرشدَه إليْهِ، ويحضَّه عليْهِ.

* ومنْ عقوباتِها: **أنَّها مددٌ منَ الإنسانِ يُمدُّ بهِ عدوَّه عليهِ**. والمقصودُ: أنَّ الذُّنوبَ والمعاصيَ سلاحٌ ومددٌ يمدُّ بها العبدُ أعداءَه، ويعينُهم بها علىٰ نفسِه، فيقاتلونَه بسلاحِه، ويكونُ معَهم علىٰ نفسِه، وهذا غايةُ الجهْلِ.

ما يَبْلُغُ الأعداءُ مِنْ جاهلٍ ** ما يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

* ومنْ عقوباتِها: **أنَّها تُنسِي العبدَ نفسَهُ**، وإذَا نَسِيَ نفسَهُ أهملَها وأفْسدَها وأهْلكَها.

* ومِنْ عقوباتِها: **أنَّها تزيلُ النِّعمَ الحاضرةَ، وتقطعُ النِّعمَ الواصلةَ**، فتُزيلُ

الحاصلَ، وتمنع الواصلَ، فإنَّ نعمَ اللهِ ما حُفظَ موجودُها بمثلِ طاعتِه، ولا استُجلبَ مفقودُها بمثلِ طاعتِه، فإنَّ مَا عندَه لا يُنال إلا بطاعتِه.

* ومنْ عقوباتِها: **أنَّها تُبَاعِدُ عنِ العبدِ وليَّه وأنفعَ الخلقِ لَه وأنصحَهمْ له**، ومَنْ سعادتُه في قربِه مِنه، وهُو الملكُ الموكَّلُ بِهِ، وتُدْنِي منه عدوَّه وأغَشَّ الخلقِ لَهُ وأعظمَهمْ ضَرَرًا لَه وهوَ الشيطانُ، فإنَّ العبدَ إذا عصَىٰ اللهَ تباعدَ مِنْه الملكُ بقدْرِ تلك المعصِيَةِ، حتَّىٰ إنَّه ليتباعَدُ عنْه بالكذْبَةِ الواحدةِ مسافةً بعيدةً.

* ومن عقوباتِها: **أنَّها تستجلبُ موادَّ هلاكِ العبدِ فِي دُنْياه وآخرتِه**، فإنَّ الذنوب هي أمراضٌ، متىٰ استحكمتْ قتلتْ ولا بدَّ، وكما أنَّ البدنَ لا يكونُ صحيحًا إلَّا بغذاءٍ يحفَظُ قُوَّتَه، واستفراغٍ يستفرِغُ الموادَّ الفاسِدَةَ والأَخْلَاط الردِيئةَ الَّتِي مَتىٰ غلبَتْ عليْهِ أفسدَتْه، وحِمْيةٍ يمتنِعُ بِهَا مِنْ تَناوُلِ ما يُؤذِيهِ ويخْشَىٰ ضررَهُ، فكذلكَ القلبُ لا تتمُّ حياتُه إلَّا بغذاءٍ مِن الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ يحفظُ قوَّته، واستفراغٍ بالتوبةِ النَّصوحِ يستفرغُ بها الموادَّ الفاسدةَ والأخلاطَ الردِيئةَ منْه، وحميةٍ تُوجِب لَه حِفْظَ الصِّحَّةِ وتجنُّب ما يضادُّها، وَهي عبارَةٌ عَنْ تركِ استعمالِ ما يُضادُّ الصحَّة.

فصل: [العقوبات الشرعية]

فإنْ لمْ ترُعْكَ هذه العقوباتُ، ولم تجدْ لها تأثيرًا في قلبِك فأحضرِ العقوباتِ الشرعيةَ الَّتي شرعَها اللهُ ورسولُه علىٰ الجرائمِ، كَما قطعَ اليدَ فِي سرقَةِ ثلاثةِ دراهِمَ، وقطعَ اليدَ والرِّجْلَ في قطعِ الطريقِ علىٰ معصومِ المالِ والنفسِ، وشقَّ الجلدَ بالسوْطِ علىٰ كلمةِ قَذْفٍ لمحصَنٍ، أو قطرةِ خمرٍ يُدخلُها جوْفَه، وقتلَ بالحجَارةِ أشنعَ قِتْلةٍ في إيلاجِ الحشفةِ في فرجٍ حَرامٍ، وخفّف هذهِ العقوبةَ عمَّن لمْ يتمَّ عليه نعمة الإحصانِ بمائةِ جلدةٍ، ونفْي سنةٍ عن وطنِه وبلدِه إلىٰ بلادِ الغربةِ، وفرَّقَ بين رأسِ العبدِ وبدنِه إذا

وقعَ علَىٰ ذاتِ رحمٍ محرَّمٍ منه، أو تَرَكَ الصَّلاةَ المفْرُوضَةَ، أو تكلَّم بكلِمةِ كُفْرٍ، وأمرَ بقتْلِ مَنْ وَطئ ذكرًا مثْلَه، وقَتلِ المفعولِ به، وأمر بقتلِ من أتىٰ بهيمةً، وقتل البهيمة معهُ، وعزمَ علىٰ تحرِيق بيوتِ المتخلِّفين عن الصلاةِ في الجماعةِ، وغير ذلك منَ العقوباتِ الَّتي رتَّبها علىٰ الجرائمِ. وجعلها بحكمتِه علىٰ حسبِ الدَّواعي إلىٰ تلك الجرائِم، وحسْبِ الوَازِع عنْها.

فَما كانَ الوازِعُ عَنه طَبيعيًّا ولَيْسَ فِي الطِّباع داعٍ إليْهِ اكْتفىٰ فِيه بالتحْرِيم مع التعزِيرِ، ولم يرتِّبْ عليْه حدًّا، كأكْلِ الرَّجيعِ، وشُربِ الدَّمِ، وأكلِ الميتةِ، وما كان فِي الطِّباع داعٍ إليه رتَّبَ عليه مِن العُقوبَةِ بقدْرِ مفسَدتِه، وبقدْرِ دَاعِي الطبْعِ إليه.

فعقُوباتُ الشَّارِع جاءتْ عَلَىٰ أتمِّ الوُجوهِ، وأوفَقِها للعقْل، وأقوَمِها بالمصْلحَةِ.

والمقْصودُ: أَنَّ الذنوبَ إما أنْ تترتَّب عليْها العُقوباتُ الشرعِيَّةُ أَوْ القدَرِيَّةُ أو يجمعُهما اللهُ للعبْدِ، وقدْ يرفعُهما عمَّنْ تابَ وأحسنَ.

فصل: [تأملات في بعض عقوبات المعاصي]

فاستحضرْ بعضَ العُقوباتِ الَّتِي رتَّبها اللهُ سُبحانَهُ وتعالَىٰ عَلَىٰ الذُّنوبِ، وجوِّز وُصولَ بعضِهَا إليْكَ واجعل ذلك داعيًا للنفسِ إلىٰ هجرانِها، وأنا أسوقُ لك منها طرفًا يكفِي العاقلَ مع التصدِيق ببعضِه.

* فمنْها: **الختمُ عَلَىٰ القلوبِ والأسْماعِ**، والغشاوةُ علىٰ الأبصارِ، والإقفالُ علىٰ القلوبِ، وجعل الأكنَّةِ عليها، والرينُ عليها والطبعُ، وتقليبُ الأفئدةِ والأبصارِ، والحيلولةُ بين المرءِ وقلبه، وإغفالُ القلبِ عن ذكرِ الربِّ، وإنْساءُ الإنسانِ نفسَهُ، وتركُ إرادةِ اللهِ تطهيرَ القلبِ، وجعلُ الصدْرِ ضيقًا حرجًا كأنَّمَا يصعَّد في السماءِ،

وصرفُ القلوبِ عن الحقِّ، وزيادتُها مرضًا علىٰ مرضِها، وإرْكاسُها[١] ونكْسُها[٢]، بحيث تبقَىٰ منكوسةً كما ذكرَ الإمامُ أَحْمد[٣] عَن حُذيفةَ بْنِ اليَمانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: «**القُلوبُ أربعةٌ: فقلبٌ أجرد[٤] فيه سراجٌ يُزْهِرُ[٥] فَذَلِكَ قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلفُ[٦] فذلك قلبُ الكافر، وقلب منكوسٌ فذلك قلبُ المنافقِ، وقلبٌ تمده مادتان: مادةُ إيمانٍ ومادةُ نفاقٍ؛ وهو لما غلب عليه منهما**».

* ومنْها: **التثبيطُ عن الطاعَةِ، والإقعادُ عنها.**

* ومنْها: **جعلُ القلبِ أصمَّ لا يسمعُ الحقَّ،** أبكمَ لا ينطقُ به، أعمَىٰ لا يراه، فيصيرُ النسبةُ بَين القلبِ وبينَ الحقِّ الَّذي لا ينفعُه غيرُه، كالنسبةِ بين أُذنِ الأصمِّ والأصواتِ، وعين الأعمَىٰ والألوانِ، ولسانِ الأخرسِ والكلامِ، وبهذا يُعلَم أنَّ العمَىٰ والصمَمَ والبكمَ للقلبِ بالذاتِ والحقيقةِ، وللجوارحِ بالعرضِ والتبعيَّةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

* ومنْها: **الخسفُ بالقلبِ كما يخسفُ بالمكانِ وما فِيه،** فيخسفُ بِه إلىٰ أسفلِ السافلينَ، وصاحبُه لا يشعُر، وعلامةُ الخسفِ به أنَّه لا يزالُ جَوَّالًا حولَ السفليَّاتِ والقاذوراتِ والرَّذائلِ، كما أنَّ القلبَ الذي رفعه اللهُ وقرَّبَه إليه لا يزالُ جَوَّالًا حول البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

---

(١) **إركاسها**: يقال ركست الشيء إذا رددته ورجعته. والركس هو قلب الشيء علىٰ رأسه أو رد أوله علىٰ آخره.
(٢) **النكس**: هو القلب علىٰ الرأس.
(٣) أحمد (٥/ ٢٣١٦) مرفوعًا عن أبي سعيد الخدري، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٦) موقوفًا علىٰ حذيفة.
(٤) **أجرد**: ليس فيه غش ولا خداع.
(٥) **يزهر**: يتلألأ.
(٦) **أغلف**: عليه غشاء من سماع الحق وقبوله.

* ومنها: **البعدُ عن البرِّ والخيرِ ومعالي الأعمالِ والأقوالِ والأخلاقِ.**

قال بعضُ السَّلفِ: «إنَّ هذه القلوبَ جوَّالةٌ، فمنْها ما يجولُ حولَ العرشِ، ومنْها مَا يجولُ حول الحُشِّ»(١).

* ومنْها: **مسخُ القلبِ**، فيُمسخُ كما تمسخُ الصُّورةُ، فيصيرُ القلبُ عَلَىٰ قلبِ الحيوانِ الَّذي شابهَه في أخلاقِه وأعمالِه وطبيعتِه، فمِنَ القلوبِ مَا يُمسخُ علىٰ خلق خِنزيرٍ لشدَّةِ شَبه صاحِبه بِه، ومنْها ما يُمسخُ علىٰ خُلُقِ قَلبِ كَلبٍ أو حِمَارٍ أو حَيَّةٍ أو عقربٍ وغيرِ ذلكَ، وهذا تأويلُ سُفيانَ بْنِ عيينةَ في قولِه تعالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

* ومنها: **مكْرُ اللهِ بالماكِر**، ومخادعتُه للمخادِع، واستهزاؤُه بالمستهزِئ، وإزاغتُه للقلبِ الزائغِ عنِ الحقِّ.

* ومنْها: **نَكسُ القلبِ حتَّىٰ يرَىٰ الباطِل حقًّا، والحقَّ باطلًا**، والمعروفَ مُنكرًا، والمنكرَ معروفًا، ويُفسدُ ويَرىٰ أنه يُصلحُ، ويصدُّ عن سبيلِ اللهِ وهو يرَىٰ أنَّهَ يدعُو إليْها، ويشْترِي الضلالَةَ بالهُدَىٰ، وهُو يَرَىٰ أنَّه علىٰ الهدَىٰ، ويتبعُ هواه وهو يزعُم أنَّه مُطِيع لموْلاهُ، وكلُّ هذا مِنْ عقوباتِ الذُّنوبِ الجارِيةِ علىٰ القلوبِ.

* ومنْها: **حِجابُ القلبِ عَنِ الربِّ في الدنْيا، والحِجابُ الأكبرُ يومَ القِيامة**، كما قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٤-١٥] فمنعتْهم الذُّنوبُ أن يقطعُوا المسافَة بينهمْ وبين قلوبِهم، فيصِلوا إليها فيرَوا ما يصلحُها ويزكِّيها، وما يُفْسِدُها ويشقِيها، وأن يقطعُوا المسافةَ بين قلوبهم

---

(١) **الحُشُّ**: واحدة الحشُوش: وهي الكُنُف ومواضع قضاء الحاجة.

وبين ربِّهم، فتصلَ القلوبُ إليه فتفوزَ بقرْبِهِ وكرامتِه، وتقرَّ به عَينًا وتطيبَ بِه نفسًا؛ بل كانتِ الذنوبُ حِجابًا بينهُمْ وبينَ قُلوبِهمْ، وحِجابًا بينهُمْ وبين ربِّهم وخالقِهم.

❊ ومنْها: **المعيشةُ الضَّنكُ في الدنيا وفي البرزخِ والعذابُ في الآخرةِ**، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

ولا تقرُّ العيْنُ، ولا يهدَأ القلبُ، ولا تطمئنُّ النفسُ إلا بإلهها ومعبُودِها الَّذِي هو حقٌّ، وكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، فمنْ قرَّتْ عينُه باللهِ قرَّتْ به كلُّ عينٍ، ومنْ لم تقرَّ عينُه باللهِ تقطَّعتْ نفسُه علىٰ الدنْيا حسراتٍ، واللهُ تعالَىٰ إنَّما جعلَ الحياةَ الطيبةَ لمنْ آمَنَ بِه وعمل صالحًا كما قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

ففازَ المتَّقونَ المحسِنونَ بنعيمِ الدنْيا والآخِرة؛ وحصلُوا علىٰ الحياةِ الطيِّبةِ في الدَّاريْنِ؛ فإنَّ طيبَ النفسِ وسُرورَ القلبِ وفرحهُ ولذَّتهُ وابتهاجَه وطمأنينتَه وانشِراحَهُ ونورَه وسعتَه وعافِيته؛ في تركِ الشَّهواتِ المحرَّمة والشُّبهاتِ الباطِلة = هو النعيم علىٰ الحقِيقةِ، ولا نسبةَ لنعيمِ البدنِ إليه.

فَقدْ كان يقولُ بعضُ من ذاقَ هذه اللَّذة: لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدُونا عليه بالسُّيوفِ.

وقال آخرُ: إنه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ فِيها: إنْ كان أهل الجنةِ في مثل هذا إنَّهم لفِي عيشٍ طيِّبٍ.

ولا تظنَّ أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] مُختصٌّ بيومِ المعادِ فقطْ، بل هؤلاءِ في نعيمٍ في دورِهمُ الثَّلاثةِ، وهؤُلاءِ في جحيمٍ في دورهمُ الثَّلاثه، وأيُّ لذَّةٍ ونعيمٍ في الدنْيا أطيبُ من بِرِّ القلبِ، وسلامةِ الصدْرِ، ومعرفةِ الربِّ تعالىٰ ومحبَّتِه، والعملِ علىٰ موافقتِه؟!

وهلِ العيشُ في الحقيقةِ إلا عيشُ القلبِ السَّليمِ؟ وقد أثنىٰ اللهُ تعالىٰ علىٰ خليلِه عليه السلام بسلامةِ قلبِه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٣-٨٤].

ولا تتمُّ له سلامتُه مُطلقًا حتَّىٰ يسْلَم من خمسَةِ أشْيَاء:

- من شركٍ يناقضُ التوحيدَ.
- وبدْعَةٍ تُخالِفُ السُّنَّةَ.
- وشهْوةٍ تُخالِفُ الأمْرَ.
- وغفْلَةٍ تُناقِضُ الذكرَ.
- وهوىً يُناقِض التجريدَ والإخلاصَ.

وهذه الخمسةُ حجبٌ عن الله، وتحتَ كلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ، تتضمَّنُ أفرادًا لا تنْحصِرُ.

ولِذلك اشتدتْ حاجةُ العبْدِ، بل ضرورتُه إِلىٰ أنْ يسألَ اللهَ أَنْ يهْديَهُ الصِّراطَ المستقِيمَ؛ فليس العبدُ أحوجَ مِنه إِلىٰ هذهِ الدعْوةِ، وليْس شيءٌ أنفعَ له منْها.

فمِنْ أعظمِ عقوباتِ الذنوبِ الخُروجُ عن الصِّراطِ المستقيمِ فِي الدنْيا والآخرَةِ.

فصل: [أنواع الذنوب والمعاصي]

ولما كانتِ الذنوبُ متفاوتةً فِي درجَاتِها ومفاسِدِهَا تفاوتتْ عقوباتُها في الدنيا والآخرةِ بحسب تفاوتِها.

ثُمَّ هذه الذنوبُ تنقسمُ إلىٰ أربعةِ أقْسامٍ: ملكِيَّة، وشيْطَانِية، وسبعيَّة، وبهيميَّة، ولا تخرُج عَنْ ذلكَ:

* **فالذنوبُ الملكِيَّةُ**: أَنْ يَتعَاطىٰ مَا لَا يصْلُح له من صفاتِ الرُّبوبيَّة، كالعظمةِ، والكبريَاءِ، والجبرُوتِ، والقهْر، والعلُوِّ، واستعبادِ الخلقِ، ونحْوِ ذلكَ.

ويدخلُ في هذَا: الشركُ بالربِّ تعالىٰ وهو نوعانِ: شركٌ به في أسمائِه وصفاتِه وجعْل آلهةٍ أخرَىٰ معَه، وشركٌ به فِي مُعَاملتِه، وهذا الثَّانِي قدْ لا يُوجِبُ دُخولَ النَّارِ، وإنْ أحبطَ العمَل الَّذِي أشْركَ فيه مع اللهِ غيرَهُ.

وَهذا القسْمُ أعظمُ أنواعِ الذُّنوبِ، ويدخُل فِيه القولُ علىٰ الله بلا علمٍ في خلقِه وأمرِه؛ فمَن كان مِن أهل هذه الذُّنوبِ، فقد نازع اللهَ سبحانَه في ربوبيتِه وملكِه، وجعلَ له ندًّا، وهذا أعظمُ الذنوبِ عند اللهِ، ولا ينفَعُ معه عملٌ.

* **وأمَّا الشيطانِيةُ**: فالتشبُّه بالشيطانِ، في الحسدِ والبغْي والغِشِّ والغِلِّ والخِداع والمكْرِ، والأمرِ بمعَاصِي اللهِ وتحسِينِها، والنهيِ عَن طاعتِه وتهجِينِها، والابْتدَاعِ في دِينِه، والدَّعْوةِ إلىٰ البِدَعِ وَالضَّلالِ.

وَهذَا النَّوعُ يَلي النوعَ الأوَّلَ فِي المفسدَةِ، وإنْ كانتْ مفسدتُه دُونَه.

* **وأمَّا السبعيَّةُ**: فذُنوبُ العُدْوانِ والغَضَبِ وسفْكِ الدِّمَاءِ، والتوثُّبِ عَلَىٰ الضُّعفَاءِ والعَاجِزينَ، ويتولَّد مِنها أنواعُ أَذىٰ النوعِ الإنسَانِيّ، والجرأةُ علىٰ الظلمِ والعُدْوَانِ.

* **وأما الذنوبُ البهيميَّةُ:** فمِثلُ الشَّرهِ، والحرصِ علىٰ قضاءِ شهوةِ البطْنِ والفرْجِ؛ ومنْها يتولَّد الزِّنَىٰ والسرقَةُ وأكلُ أمْوالِ اليَتامَىٰ والبخلُ والشحُّ والجبنُ والهلَعُ والجزَعُ وغيرُ ذَلك.

وَهذا القسْمُ أكثرُ ذنوبِ الخلقِ لعجزِهمْ عَنِ الذُّنوبِ السبعيَّةِ والملكيَّةِ، ومنْه يدخُلون إلىٰ سائرِ الأقسَام، فهُوَ يجرُّهم إليها بالزِّمامِ، فيدخُلونَ مِنه إلىٰ الذُّنوبِ السبعيَّةِ، ثُمَّ إلىٰ الشيطَانيَّةِ، ثُمَّ إلىٰ منازَعةِ الربوبيَّة، والشرْكِ في الوحدانيَّةِ.

ومنْ تأمَّل هَذَا حقَّ التأمُّلِ تبيَّنَ لَه أَنَّ الذنوبَ دِهليزُ الشرْكِ والكفرِ، ومنازعةِ الله ربوبيَّتَه.

فصل: [الذنوب: صغائر وكبائر]

وقدْ دلَّ القرآنُ والسنَّةُ وإجماعُ الصحابةِ والتابعِينَ بعدَهم والأئِمَّةُ عَلىٰ أنَّ مِن الذنوبِ كبائرَ وصغائرَ، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

وفِي الصَّحيح(١) عنه ﷺ أنَّه قال: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلىٰ الجمعةِ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ مُكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنبتِ الكبائرُ**».

وفي الصحيحيْن(٢) عنه ﷺ: «**اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ**». قيل: وما هُنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**الشركُ باللهِ، والسحْرُ، وقتلُ النفسِ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الرِّبَا، والتَّوَلِّي يومَ الزحفِ، وقذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلَاتِ المؤمناتِ**».

---

(١) مسلم (٢٣٣).

(٢) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

فالشركُ أظلَمُ الظلمِ، والتوحيدُ أعدلُ العدلِ، فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصودِ فهو أكبرُ الكبائرِ، وتفاوتُه في درجاتِها بحسب مُنافاتِها له، وما كان أشدَّ موافقةً لهذا المقصودِ فهو أوجبُ الواجباتِ وأفرضُ الطَّاعاتِ.

فتأمَّل هذا الأصلَ حقَّ التأمُّل، واعتبرْ تفاصيلَهُ تعرفْ بِه حكمةَ أحكمِ الحاكِمينَ وأعلَم العالمينَ فيما فرضَهُ علىٰ عِبادِه، وحرَّمه عليْهم، وتفاوت مراتِب الطَّاعاتِ والمعَاصِي.

ولمَّا كانَ الشرْكُ باللهِ منافيًا بالذَّاتِ لهذا المقصودِ كَانَ منْ أكبرِ الكبائرِ علىٰ الإطلاقِ، وحرَّم اللهُ الجنَّةَ عَلَىٰ كُلِّ مشركٍ، لما تركُوا القيامَ بعبوديَّتِه، وأَبىٰ الله سبحانه أن يقبلَ من مشركٍ عملًا، أو يقبلَ فيه شفاعةً، أو يستجيبَ له في الآخرةِ دعوةً، أو يقيل له فيها عثرةً، فإنَّ المشركَ أجهلُ الجاهلينَ باللهِ، حيثُ جَعلَ لَه منْ خلقِه نِدًّا، وذَلك غايةُ الجهْلِ بِهِ، كَمَا أنَّه غايةُ الظُّلمِ مِنْه، وإنْ كان المشرِك لم يظلِمْ ربَّه، وإنما ظلَمَ نفسَهُ.

فصل: [الشرك وأنواعه]

الشرْكُ شرْكَانِ:

* **شِركٌ يتعلَّق بذاتِ المعبودِ** وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

* **وشركٌ في عبادَتِه ومعاملتِه**، وإنْ كانَ صاحبُه يعتقِدُ أنَّه سُبحانَه لَا شَرِيكَ لَه فِي ذَاتِه، وَلَا فِي صِفَاتِه، وَلَا في أفْعَالِه.

والشركُ الأوَّلُ نوعَان:

- **أَحدهما**: شِرْكُ التعْطيلِ: وَهُو أقبحُ أنواعِ الشِّرْكِ، كشرْكِ فِرعَوْنَ إذ قَالَ: وما ربّ العالمين، وَقَالَ لهامَان: ابن لي صرحًا، لعلّي أطلع إلىٰ إله موسىٰ، وإنّي لأظنّه من الكاذبين

والشِّرْكُ والتعطِيلُ متلازمَانِ: فَكلُّ مشرِكٍ مُعطِّلٌ، وكلُّ معطِّلٍ مشرِكٌ، لكنَّ الشرْكَ لا يستلزِم أصْلَ التعْطِيلِ، بَل قدْ يَكونُ المشْرِكُ مقرًّا بالخالِق سبْحانَه وصفَاتِه، ولكنَّه عطَّل حقَّ التوحِيد.

وأصلُ الشركِ وقاعدَتُه الَّتِي يرجِعُ إليْها، هو التعطِيلُ، وَهُو ثلاثَةُ أقسامٍ:

١- تعطيلُ المصنوعِ عَن صانعِه وخالقِه.

٢- وتعطيلُ الصَّانِع سُبحانَهُ عَن كمالِه المقدَّس بتعطِيلِ أَسمَائِه وأَوْصَافِه وأفعالِه.

٣- وتعطيلُ معاملَتِه عَمَّا يجِبُ علَىٰ العبْدِ من حقيقَةِ التَّوحِيدِ.

• **النوعُ الثَّاني**: شرْك من جعل معه إلهًا آخرَ ولم يعطِّل أسماءَه وصفاته وربوبيَّتَه كشرْكِ النَّصارَىٰ الذينَ جعلُوه ثالثَ ثلاثةٍ، فجعلُوا المسيحَ إلهًا، وأمَّه إلهًا.

○ **ومِنْ هَذَا شرْكُ المجُوسِ** القائِلين بإسْنادِ حوادث الخيْرِ إلَىٰ النُّورِ، وحوادِث الشرِّ إلىٰ الظلمةِ.

○ **ومنْ هذَا شركُ الَّذي حاجّ إبراهيمَ في ربِّه**: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فهذا جعلَ نفسَه ندًّا لله تعالَىٰ يُحيي ويميتُ بزعمِه، كما يحيي اللهُ ويميتُ.

○ **ومِنْ هذا شرْكُ كثيرٍ ممّنْ يشركُ بالكواكِب العلويَّاتِ**، ويجعَلُها أربابًا مدبِّرة لأمْرِ هَذا العالم، كما هُو مذْهبُ مشركِي الصَّابِئة وغيرِهم.

○ **ومِنْ هَذَا شرْكُ عُبَّادِ الشمْس وعُبَّادِ النَّار وغيرِهم.**

فصل: [الشرك في العبادة]

وَأمَّا الشِّرْكُ فِي العِبادَةِ: فَهُو أسْهلُ مِنْ هَذَا الشرْكِ، وأخفُّ أمرًا، فإنَّه يصْدُر ممَّنْ يعتقِدُ أنَّه لَا إلَه إلَّا الله، وأنَّه لا يضُرُّ وينفَعُ ويُعطِي ويمْنَعُ إلا اللهُ، وأنَّه لَا إلهَ غيرُه ولا ربَّ سِواه، ولكنْ لا يخْلصُ للهِ في معاملَتِه وعبوديَّتِه، بَل يعمَلُ لحظِّ نفسِه تارةً، ولطلَبِ الدُّنْيا تارةً، ولطلبِ الرفعَةِ والمنزلةِ والجَاهِ عنْدَ الخلقِ تَارةً، فللهِ مِنْ عملِه وسعْيِه نصيبٌ، ولنفْسِه وحظِّه وهوَاه نصيبٌ، وللشيطانِ نصيبٌ، وللخلقِ نصيبٌ، وهذَا حالُ أكثرِ النَّاسِ.

فالرياءُ كلُّه شركٌ، قَال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وَكَانَ مِنْ دُعاءِ عُمرَ بْنِ الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «اللهمَّ اجعل عَملِي كُلَّه صالحًا، واجعله لوجْهِك خَالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فِيه شيئًا».

وهذا الشرْكُ فِي العِبَادةِ يبطِلُ ثوابَ العَملِ، وقدْ يُعاقَب عليْه إذا كان العملُ وَاجِبًا، فإنه يُنزلُه منزلةَ مَنْ لم يعمَله؛ فيُعاقَبُ علىٰ تركِ الأمرِ، فإنَّ اللهَ سبحانَه إنَّما أمَر بعبادَتِه خالصةً، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

فمنْ لم يُخلِصْ للهِ في عبادتِه لم يفعل مَا أُمِرَ بِه، بَل الَّذِي أَتىٰ بِه شيءٌ غيرُ الَّذِي أُمِر بِه: فلا يصحُّ، ولا يُقبلُ مِنْهُ، ويقولُ اللهُ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّركَاءِ عن الشِّرْكِ، فمَنْ عَمِلَ عَملًا أشرَكَ مَعِي فيه غَيْرِي فهُو للَّذي أشْرَكَ بِه، وأنا منهُ بريءٌ**»[(١)].

وهذا الشركُ ينقسمُ إلىٰ مغفورٍ وغيرِ مغفورٍ، وأكبرَ وأصغرَ.

والنوعُ الأوَّلُ: ينقسِمُ إِلَىٰ كبيرٍ وأكْبرَ، وليسَ شيءٌ منه مغفورًا، فمنْه الشركُ باللهِ

---

(١) مسلم (٢٩٨٥).

في المحبَّةِ والتعظيمِ، أن يحبَّ مخلوقًا كما يحبُّ اللهَ، فهذَا مِن الشرْكِ الَّذِي لا يغفِرُه اللهُ، وَهُو الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبحانَه فِيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقالَ أصْحابُ هَذَا الشرْكِ لآلهتِهمْ وقد جمعتهم الجحِيمُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

فصل: [الشرك في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات]

ويتبعُ هَذا الشركَ الشركُ بِه سبحانَه في الأفعالِ والأقوالِ والإراداتِ، والنيَّاتِ.

فالشِّرْكُ فِي الأفعَالِ **كالسجُودِ لغيرِه، والطَّوافِ بغيرِ بيتِه، وحَلقِ الرأسِ عبوديةً وخُضوعًا لغيرِه**، وتقبيلِ الأحجارِ غيرِ الحجرِ الأسوَدِ، وتقبيلِ القبُور واستلامِها، والسجودِ لها، ولقدْ لَعنَ النبيُّ ﷺ مَنِ اتَّخذَ قُبورَ الأنبياءِ والصَّالحينَ مساجِدَ يصلَّىٰ للهِ فِيها، فكيفَ بمنِ اتَّخذ القبورَ أوثانًا يَعبُدُها مِن دُونِ اللهِ؟

ففِي الصحيحين[(١)] عنه ﷺ أنَّهُ قَال: «**لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارَىٰ، اتَّخذُوا قبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ**».

وَمِنَ الشركِ به سبحانَه الشركُ به في اللفظِ، كالحلفِ بغيرِه، كما رواه الإمامُ أحمدُ وأبوداودَ عنه ﷺ أنه قالَ: «**منْ حلفَ بغيرِ الله فقدْ أشْركَ**» صحَّحهُ الحاكمُ وابنُ حبَّان[(٢)].

ومنْ ذلكَ قولُ القائل للمخلُوقِ: ما شاء اللهُ وشئتَ، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه

---

(١) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩).

(٢) أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٣/ ١٢٩١)، والحاكم (١/ ١٨)، وابن حبان (٢١٧٧).

قال له رجلٌ: مَا شَاءَ اللهُ وشئْتَ، فقال: «**أجعلتَنِي لله ندًّا؟ قُل: ما شاءَ اللهُ وحدَه**»[1].

وأمَّا الشركُ في الإراداتِ والنياتِ **فذلك البحرُ الَّذِي لا ساحِل لَهُ، وقلَّ مَنْ ينجُو منه**؛ فمنْ أرادَ بعملِه غيرَ وجْهِ اللهِ أو نَوىٰ شَيئًا غَيرَ التقرُّب إليْهِ وطلبِ الجزاءِ منْه، فقدْ أشْرَكَ في نيتِه وإرادتِه.

والإخلاصُ: أنْ يخلصَ للهِ في أقوالِه وأفعالِه وإرادتِه ونيَّتِه، وهذه هِي الحنيفيَّةُ - مِلةُ إبراهِيم - الَّتي أمرَ اللهُ بِها عِبادَه كُلَّهم، ولا يَقْبَلُ منْ أحدٍ غيرَها، وهِي حقيقةُ الإسْلَامِ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، وهي ملة إبراهيم التي من رَغِبَ عنها فهو من أسفه السفهاء.

فصل: [حقيقة الشرك]

حقيقةُ الشرْكِ: هو التشبُّه بالخالقِ والتشبيهُ للمخلوق به.

هذا هو التشبيهُ في الحقيقةِ، لا إثباتُ صفاتِ الكمالِ الَّتي وصف اللهُ بِها نفسَه ووصفَه بها رسولُه سبحانه، فعكس من نكَّس اللهُ قلبه، وأعمىٰ عينَ بصيرتِه، وأرْكَسه بلبْسِه الأمرَ، وجعلِ التَّوحيدِ تشبيهًا، والتشبيهَ تعظيمًا وطاعةً؛ فالمشرِكُ مشبِّه للمخلوقِ بالخالِقِ في خصائصِ الإلهيةِ.

فَإنَّ من خصائصِ الإلهيَّة التفرُّد بملك الضرِّ والنفْعِ والعطاءِ والمنْعِ، وذلك يُوجبُ تعلُّقَ الدُّعاءِ والخوْفِ والرَّجاءِ والتوكُّل به وحدَهُ، فمَنْ علَّق ذلك بمخلوقٍ فقدْ شبَّهه بالخالِق، وجعل ما لا يملك لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا ولا موْتًا ولا حَياةً ولا نشورًا، فضْلاً عن غيرِه شبيهًا لمنْ لَهُ الأمْرُ كُلُّه، فأزِمَّة الأمُورِ كلِّها بيدَيْه، ومرجِعُها

(١) ابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (٢/ ٤٧٢).

إليْه، فَما شَاءَ كَانَ ومَا لَمْ يشأْ لم يكُنْ، لَا مَانعَ لما أَعْطَىٰ، ولا مُعْطِي لما مَنَع، بَل إِذَا فَتح لعبْدِه بابَ رحمةٍ لم يُمسكْها أحدٌ، وإن أمسَكَها عنْه لم يُرسلها إليه أحدٌ.

فمِنْ أقبَحِ التشبيهِ تشبيهُ هَذَا العاجزِ الفقيرِ بالذَّاتِ بالقادِرِ الغنيِّ بالذَّات.

وَفي الصحيح[1] عنه ﷺ أنَّه قَال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ ذَهب يخلُقُ خَلقًا كخلقِي، فليخلُقُوا ذرَّةً، فليخلُقُوا شعيرةً**» فنبَّه بالذرَّة والشعيرَة علىٰ ما هُو أعظمُ منهما وأكبرُ.

فصل: [سوء الظن بالله]

إذا تبيَّن هذا فهاهنا أصلٌ عظيمٌ يكشِف سرَّ المسألةِ، وهو أنَّ أعظمَ الذنوبِ عند الله إساءةُ الظنِّ به، فإنَّ المسِيءَ بِه الظنَّ قد ظَنَّ به خلافَ كمالِه المقدَّسِ، وظنَّ به ما يناقِض أسماءَه وصفاتِه، ولهذا توعَّد اللهُ سبحانَه الظانِّينَ به ظنَّ السوءِ بما لم يتوعَّدْ به غيرَهم، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، وقالَ تعالَىٰ لمنْ أنكرَ صفةً من صفاتِه: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

وَقالَ تعالَىٰ حاكيًا عنْ خليلِه إبراهيمَ أنَّه قال لقومِه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧].

فأمَّا القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، الغنيُّ بذاتِه عن كلِّ شيءٍ، العالم بكلِّ شيءٍ، الرحمن الرحيمِ الَّذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، فإدخالُ الوسائطِ بينه وبين خلقِه تنقُّصٌ بحقِّ ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه وتوحيدِه، وظنٌّ به ظنَّ السوءِ، وهذَا يستحيلُ أن يشرعه لعبادِه، ويمتنع في العقول والفِطَر، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوقَ كلِّ قبيحٍ.

---

(١) البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

فصل: [القول على الله بغير علم]

ويَلي ذلكَ فِي كبر المفسدةِ: القولُ عَلىٰ اللهِ بلَا علمٍ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ووصفُه بضدِّ ما وصف بِه نفسَهُ ووصفَه به رسولُهُ، فهو أشدُّ شيءٍ مناقضةً ومنافاةً لكمالِ من له الخلق والأمرُ، وقدحٌ في نفس الربوبيةِ وخصائص الربِّ، فإن صدرَ ذلك عن علمٍ فهو عنادٌ أقبحُ من الشِّرْكِ وأعظمُ إثمًا عند الله.

والقولُ علىٰ الله بلا علمٍ والشركُ متلازِمانِ، ولما كانتِ البدعُ المضلةُ جَهْلًا بصفَاتِ اللهِ، وتكذيبًا بما أَخْبَرَ بِه عنْ نفسِه وأخبرَ به عنه رسولُه عِنادًا وجهْلًا؛ كانتْ من أكبرِ الكبائِر، إنْ قصرتْ عنِ الكفْرِ.

ومعلومٌ أنَّ المذنِبَ إنَّما ضررُه علىٰ نفسِه، وأمَّا المبتدِعُ فضررُه علىٰ النوْعِ، وفتنةُ المبتدِع في أصلِ الدِّينِ، وفتنةُ المذنب في الشهْوةِ، والمبتدعُ قد قعدَ للنَّاسِ علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ يصدُّهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدعُ قَادحٌ في أوصافِ الربِّ وكمالِه، والمذنبُ ليْس كذلِكَ، والمبتدعُ مُناقِضٌ لما جاء به الرَّسُولُ ﷺ، والعاصِي ليس كذلكَ.

والمبتدِعُ يقطعُ علىٰ النَّاسِ طريقَ الآخِرَةِ، والعاصِي بطيءُ السير بسبب ذُنوبِه.

فصل: [مفسدة القتل]

ثمَّ لما كَان الظلمُ والعُدوانُ منافيًا للعدْلِ الَّذِي به قَامتِ السمواتُ والأرضُ، وأَرسلَ اللهُ سبحانَه رُسلَه عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ وأنزلَ كُتبَه ليقومَ النَّاسُ بِهِ، كان من أكبر الكبائِرِ عندَ اللهِ، وكانتْ درجتُه في العِظَمِ بحسْبِ مفسدتِه في نفسِه، وكان قتلُ الإنْسانِ ولده الطفلَ الصغيرَ الَّذي لا ذنْبَ لَهُ - وقدْ جَبل الله سبحانه القلوبَ علىٰ محبَّتِه ورحمتِه وعطَفَها عليه، وخصَّ الوَالِدَيْنِ من ذلك بمزيةٍ ظاهرة، فقتله خشية أن

يشاركَه في مطعمِه ومشْربه ومالِه - منْ أقْبحِ الظلمِ وأشدِّه، وكذلك قتلُه أبويْه اللَّذيْنِ كَانَا سببَ وُجودِه، وكذلك قتلُه ذا رحمِه.

وتتفاوتُ درجاتُ القتْلِ بحسْبِ قبْحِه واستحقاقِ من قتلَه للسعْيِ في إبقَائِه ونصيحَتِه.

ولهذَا كَان أشدُّ الناسِ عَذابًا يومَ القيامة مَنْ قتل نبيًّا أو قتلَهُ نبيٌّ.

ويليهِ من قتل إمامًا أو عالمًا يأمُر النَّاسَ بالقسْطِ ويدعُوهمْ إلىٰ اللهِ وينصحُهمْ فِي دينِهم، وقد جعلَ اللهُ سبحانَه جزاءَ قتْلِ النَّفْسِ المؤمنَةِ عَمدًا الخلُودَ في النَّارِ، وغضبَ الجبَّارِ، ولَعْنَتَه، وإعدادَ العذابِ العظيمِ لهُ، هذا مُوجبُ قتل المؤمِن عَمدًا ما لم يمنَعْ منه مانِعٌ.

ولما كانت مفسدةُ القتْلِ هذه المفسدةَ قال اللهُ تعَالىٰ: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢].

وفي صحيح البخاريِّ[١] عن ابْنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يزالُ المؤمنُ في فُسحةٍ[٢] من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حَرامًا**».

وذكر البخاريُّ[٣] أيضًا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**مِنْ ورطاتِ الأمورِ الَّتي لا مخرجَ لمن أوقع نفسَهُ فيها: سفكُ الدم الحرامِ بغير حلِّهِ**».

---

(١) البخاري (٦٨٦٢).

(٢) الفسحة: السعة.

(٣) البخاري (٦٨٦٣).

وفي الصحيحينِ[١] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «**سِبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقِتالُه كفرٌ**».

وفيهما[٢] أيضًا عنه ﷺ: «**لا ترجعُوا بعدِي كفَّارًا يضربُ بعضُكمْ رقابَ بعْضٍ**».

وفي صحيح البخاري[٣] عنه ﷺ: «**مَنْ قَتل مُعاهدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها ليُوجدُ من مسيرةِ أربعينَ عَامًا**».

هذه عقوبةُ قاتِل عدوِّ اللهِ إِذَا كَان في عهْدِه وأمانِه، فكيفَ عقوبةُ قاتلِ عبْدِه المؤمنِ؟! وإِذَا كانتِ امرأةٌ قد دخلتِ النَّارَ في هرَّةٍ حبستْها حتَّىٰ ماتتْ جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النارِ، والهرةُ تخدِشُها في وجهِها وصدرِها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتَّىٰ مات بغير جُرْمٍ؟ وفي بعض السنن[٤] عنه ﷺ: «**لزوالُ الدُّنيا أهونُ عند الله من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ**».

فصل: [مفسدة الزنا]

ولما كانتْ مفسدةُ الزِّنىٰ من أعظمِ المفاسِد، وهي منافيةٌ لمصلحةِ نظامِ العالم فِي حفْظِ الأنسَابِ، وحمايةِ الفُرُوج، وصيانةِ الحرماتِ، وتوقِّي ما يُوقع أعظمَ العداوةِ والبغْضاءِ بينَ النَّاسِ، من إفسادِ كُلٍّ منهُمْ امرأةَ صاحِبه وابنته وأخته وأمّه، وفي ذَلك خَرابُ العالمِ، كانتْ تَلي مفسدةَ القتْلِ في الكبرِ، ولهذَا قرنَها اللهُ سبحانَه بِها في كتابِه،

(١) البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، ولكن من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعند ابن ماجه (٣٩٤٠).
(٢) البخاري (٧٠٧٧)، ومسلم (٦٦).
(٣) البخاري (٣١٦٦).
(٤) الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧).

ورسولُه ﷺ في سنته.

قال الإمامُ أحمدُ: لا أعلمُ بعد قتل النفس شيئًا أعظم مِنَ الزِّنَا.

وقدْ أكَّد اللهُ سبحانَه حرمَتَهُ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فقرَن الزنىٰ بالشرْكِ وقتلِ النفْسِ، وجعلَ جزاءَ ذلكَ الخلودَ في العذابِ المضاعَفِ، ما لم يرْفَعِ العبدُ مُوجبَ ذَلك بالتوْبَةِ والإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ.

ولما كَان مبدأُ ذلك من قِبَلِ البصرِ جَعل الأمْر بِغضِّه مقدَّمًا علىٰ حفظِ الفرْجِ، فإن الحوادِث مبدؤها من النظر، كَما أن معْظَم النَّارِ من مستصْغَرِ الشَّررِ، فتكونُ نظرةٌ، ثم خطرةٌ، ثم خطوةٌ، ثم خطيئةٌ.

ولهذا قيل: من حفظَ هذه الأربعةَ أحرزَ دِينه: اللحظاتِ، والخطراتِ، واللفظاتِ، والخطُواتِ.

فينبغِي للعبد أن يكون بوّاب نفسه علىٰ هذه الأبواب الأربعة، ويُلازِمُ الرِّباطَ علىٰ ثُغورِها، فمنْها يدخُل عليه العدوُّ، فيجوسُ خلالَ الديارِ، ويتّبر مَا علا تتبيرًا.

فصل: [أبواب المعاصي الأربعة]

وأكثرُ ما تدخل المعاصي علىٰ العبد من هذه الأبواب الأربعة؛ فنذكُر فِي كلِّ واحدٍ منها فصلًا يليقُ به:

* **فأمَّا اللحظاتُ**: فهي رائد الشهوةِ ورسولُها، وحفظها أصل حفظِ الفرجِ، فمنْ أطلقَ بصرَه أورد نفسَه مواردَ الهلكاتِ.

قال ﷺ: «**إيَّاكمْ والجلوسَ عَلىٰ الطُّرقاتِ**». قالوا: يا رسول الله مجالسنا ما لنا بدٌّ منها! قال: «**فإنْ كنتُم لا بدَّ فاعِلين فأعطُوا الطريقَ حقَّه**». قالوا: وما حقه؟ قال: «**غضُّ البصرِ، وكفُّ الأذىٰ، وردُّ السَّلامِ**»(١).

والنظرُ أصلُ عامَّةِ الحوادِث الَّتي تُصيبُ الإنسانَ، فإنَّ النظرةَ تُولِّد خطرةً، ثُمَّ تولِّد الخطرةُ فكرةً، ثم تولِّد الفكرةُ شهوةً، ثم تولِّد الشهوةُ إرادةً، ثمَّ تقوىٰ فتصير عزِيمةً جازمةً، فيقعُ الفعلُ ولا بد، ما لم يمنَعْ مِنه مانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيل: «الصبْرُ علىٰ غضِّ البصرِ أيسَرُ مِنَ الصبْرِ عَلَىٰ ألم مَا بعدَه».

قَال الشَّاعر:

كُلُّ الحوادثِ مبداها من النَّظرِ ** ومعظمُ النَّارِ من مستَصْغَرِ الشررِ
كم نظرةٍ بلغتْ من قلبِ صَاحِبها ** كمبْلغِ السهْمِ بينَ القوْسِ والوترِ
والعبدُ ما دام ذا طرفٍ يُقَلّبهُ ** في أعين العِينِ موقوفٌ علىٰ الخطرِ
يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَهُ ** لا مَرحبًا بسُرورٍ عادَ بالضَّررِ

ومنْ آفاتِ النَّظرِ: أنَّه يُورث الحسراتِ والزَّفَراتِ والحرقاتِ، فيرىٰ العبدُ ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أنْ تَرىٰ ما لَا صبْر لَكَ علىٰ بعضِه، ولا قُدرةَ لَكَ علىٰ بْعضِه.

* **وأمَّا الخطراتُ**: فشأنُها أصعبُ؛ فإنَّها مبدأُ الخيْرِ والشرِّ، ومنها تتولَّد الإراداتُ والهممُ والعزائمُ، فمن راعىٰ خطراتِه ملك زمامَ نفسه وقهرَ هَواه، ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسُه له أغلبُ، ومن استهان بالخطراتِ قادَتْه قسْرًا

(١) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

إلىٰ الهلكاتِ.

ولا تَزالُ الخطراتُ تتردَّد علىٰ القلبِ حَتَّىٰ تصِير مُنًىٰ باطلةً ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور:٣٩] وأخسُّ الناسِ همَّةً، وأوضعُهم نَفْسًا مَنْ رضِي من الحقائقِ بالأمانيِّ الكاذبةِ، واستجْلبهَا لنفسِه، وتحلَّىٰ بها، وهِي لعمرِاللهِ رءوسُ أموالِ المفلسينَ، ومتاجر البطَّالين، وهي قوت النفسِ الفارغةِ الَّتي قد قنعتْ من الوصْلِ بزورَةِ الخيَالِ، ومن الحقائق بكواذِب الآمال.

❊ **وأمَّا اللفظاتُ**: فحفظُها بأن لا يخرجَ لفظةً ضائعة، بأن لا يتكلمَ إلَّا فيما يرجُو فيه الربْحَ والزيادةَ في دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمةِ نَظَر: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أمْ لَا؟ فإن لم يكن فيها ربحٌ أمسكَ عنها، وإنْ كَان فِيها رِبحٌ نَظَر: هل يفوتُه بِها كلمةٌ هِي أربحُ منْها؟ فَلا يضيِّعها بهذِه، وإذا أردْتَ أن تستدلَّ علىٰ ما في القلبِ فاستدلَّ عليْهِ بحركةِ اللِّسانِ؛ فإنَّه يُطلِعُ علىٰ ما في القلبِ، شَاء صاحبُه أمْ أَبَىٰ.

قَال يحيىٰ بنُ مُعاذٍ: «القلوبُ كالقُدورِ تَغلي بما فيها، وألسنتُها مغارفُها، فانظُرْ إلىٰ الرَّجُلِ حينَ يتكلَّمُ، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبِه، حلوٌ وحامضٌ، وعذبٌ وأُجاجٌ، وغيرُ ذِلك، ويبين لك طعم قلبه اغترافُ لسانه»؛ أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القِدْرِ منَ الطَّعامِ فتدْرك العلمَ بحقيقته، كَذلك تطعَمُ ما في قلبِ الرجلِ مِن لسانِه، فتذُوقُ مَا فِي قلبِه مِن لسانِه، كما تذوقُ ما في القِدْر بلسانِكَ.

وسُئِل ﷺ عَنْ أكثَرِ ما يُدْخِل النَّاسَ النَّار؟ فقال: «**الفمُ والفرْجُ**»[(١)].

(١) الترمذي: (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

ومنَ العجب أنَّ الإنسانَ يهونُ عليهِ التحفُّظُ والاحترازُ من أكْلِ الحرَامِ والظلمِ والزِّنا والسرقة وشرب الخمْرِ، ومن النَّظرِ المحرَّمِ وغيْر ذَلك، ويصعبُ عليه التحفُّظ مِنْ حركَةِ لسانِه، حتَّىٰ تَرىٰ الرجلَ يُشارُ إليْهِ بالدِّين والزهْدِ والعبَادةِ، وهو يتكلَّم بالكلماتِ من سخطِ اللهِ لا يُلقِي لَها بَالًا يزلُّ بالكلمةِ الواحدَةِ منْها أبعدَ ممَّا بيْنَ المشْرقِ والمغرِبِ، وكَم تَرىٰ مِنْ رَجلٍ متورِّعٍ عَن الفواحِش والظُّلمِ، ولسانُه يفْرِي في أعراضِ الأحْياءِ والأمْواتِ، ولا يُبالي مَا يقُولُ.

وفي الصحيحيْن(١) من حديثِ أَبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من رضوانِ اللهِ لا يلقِي لها بالًا يرفعُه اللهُ بهَا درجاتٍ، وإنَّ العبْدَ ليتكلَّم بالكلِمَةِ مِن سخَطِ اللهِ لا يُلقِي لها بالًا يهْوِي بها في جهنَّم**».

وفي اللِّسَانِ آفتَانِ عظيمتَانِ، إنْ خلص من إحداهما لم يخلُصْ منَ الأخْرَىٰ: آفة الكلام، وآفةُ السكوتِ، وقدْ يكونُ كُلٌّ منهُما أعظمَ إثمًا مِنَ الأُخْرىٰ في وقتِها؛ فالسَّاكِتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخْرسُ، عاصٍ للهِ، مُراءٍ مُداهِنٌ إذا لم يخَفْ علىٰ نفسِه، والمتكلِّمُ بالباطِل شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ للهِ.

وأكثرُ الخلقِ منحرفٌ فِي كلامِه وسُكوتِه؛ فهمْ بينَ هذينِ النوْعينِ، وأهلُ الوسَطِ - وهمْ أهلُ الصراطِ المستقِيم - كَفُّوا ألسنتَهمْ عَنِ البَاطِل، وأطلقُوها فِيما يعُودُ عليهِمْ نفعُه في الآخِرةِ، فَلا ترىٰ أحدَهُمْ أنه يتكلَّم بكلِمةٍ تذْهبُ عليْهِ ضائعةً بلا منفعةٍ، فَضلًا عن أن تضرَّه في آخرَته، وإنَّ العبدَ ليأتي يوم القِيامة بحسناتٍ أمثَال الجبالِ، فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها عليهِ كُلَّها، ويأتِي بسيئاتٍ أمثالِ الجبالِ فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها مِن كثرةِ ذكْرِ اللهِ ومَا اتَّصلَ بِه.

---

(١) البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

* **وأما الخطُواتِ: فحفظُها بأنْ لا ينقِل قدَمَه إلَّا فِيما يرْجُو ثوابَه، فإنْ لم يكنْ في خُطاهُ مزِيدُ ثوابٍ فالقُعودُ عَنْها خيرٌ له**، ويمكنه أن يستخرجَ من كُلِّ مباحٍ يخطُو إليهِ قُربة ينويها لله، فتقعُ خُطاه قربةً.

فصل: [عقوبات الزنا]

وهَذا كلُّه ذكرنَاه مقدمةً بين يدَي تحرِيم الفواحِش ووُجوبِ حِفظ الفرْجِ، وقدْ قالَ رسُول اللهِ ﷺ: «**أكْثر ما يُدْخِل الناسَ النَّار: الفمُ والفرجُ**»(١).

وفي الصحيحين(٢) عنْه ﷺ: «**لا يحلُّ دمُ امرِئٍ مسلمٍ إلا بإحدَىٰ ثلاثٍ: الثيبِ الزاني، والنفسِ بالنفسِ، والتارِك لدينِه المفارقِ للجماعَةِ**».

ومفسدَةُ الزنا مناقِضةٌ لصَلاح العَالم.

فكمْ فِي الزنا مِن استحْلال محرمَاتٍ، وفوَات حُقوقٍ، ووقُوع مظالمَ؟

ومِنْ خاصيَّتِه: أنَّه يُوجِبُ الفقْرَ، ويقصِّرُ العمْرَ، ويكْسُو صاحِبَه سوادَ الوجْه، وثوبَ المقتِ بين الناسِ.

ومن خاصيَّته أيضًا: أنه يشتِّت القلبَ ويُمرضُه إن لم يمِتْه، ويجلبُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ؛ ويُباعد صاحبه من الملك ويقرِّب منه الشيطانِ، فليس بعد مفسدةِ القتلِ أعظمُ من مفسدتِه، ولهذا شُرِع فيه القتل علىٰ أشنَع الوجوهِ وأفحشِها وأصعَبِها، ولَو بلَغ العبدَ أنَّ امرأتَه أو حُرمتَه قُتِلَت، كانَ أسهلَ عليْه من أنْ يبلُغَه أنها زَنَت.

وقال سعدُ بنُ عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيْف غير

(١) الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).
(٢) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

مُصْفَحٍ»[١] . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبُون مِن غيْرةِ سعدٍ؟ والله لأنَا أغيَرُ مِنه، والله أغيرُ مني، ومن أجلِ غيرةِ الله حرَّم الفواحِش ما ظَهر منْها وما بَطن**»[٢] .

وفي الصحيحين[٣] أيضًا عنه ﷺ: «**إنَّ اللهَ يغارُ، وإنَّ المؤمنَ يغارُ، وغيرَة اللهِ أن يأتِي العبدُ ما حرَّمَ عليْه**».

وفي الصَّحيحين[٤] أيضًا عنْه ﷺ: «**لا أحدَ أغيرُ مِن اللهِ، مِن أجلِ ذلك حَرَّم الفواحِش ما ظَهر منْها وما بَطن، ولا أحدَ أحبُّ إليْه العذرُ مِن اللهِ، مِن أجلِ ذلك أرْسَل الرُّسلَ مبشِّرين ومنذِرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدْحُ مِن الله، منْ أجْلِ ذلك أثنىٰ علىٰ نفسِه**».

وخصَّ سبحانَه حدَّ الزنا من بين الحُدود بثلاثِ خصائص:

* **إِحداها**: القتْلُ فيه بأشنَع القتلات، وحيْثُ خفَّفه فجمعَ فِيه بين العقوبةِ علىٰ البدن بالجلد وعلىٰ القلب بتغريبه عن وطنِه سنةً.

* **الثَّاني**: أنَّه نَهىٰ عبادَه أن تأخُذَهم بالزُّنَاةِ رأفةٌ في دينِه، بحيثُ تمنعُهم مِن إقامَة الحدِّ عليْهِمْ؛ فإنَّه سُبحَانَه مِن رأفَتِه ورحمَتِه بهِمْ شرع هذه العقوبةَ فهُو أرْحمُ منكُمْ، ولم تمنعْه رحمتُه مِن أمرِه بهذِه العقوبةِ، فَلا يمنعُكُمْ أنتمْ ما يقومُ بقلُوبكُمْ مِنَ الرأفَةِ مِن إقامَة أمرِه.

* **الثَّالثُ**: أَنَّه سبحانه أمرَ أنْ يكُونَ حدُّهما بمشْهدٍ مِن المؤمنينَ، فلا يكونُ خلوةً بحيثُ لا يراهُما أحدٌ، وذَلك أبلَغُ فِي مصلحةِ الحدِّ وحكمةِ الزجْرِ، وحدُّ الزَّاني

---

(١) مصفح ـ بضم الميم وفتح الفاء ـ: يقال: أصفحته بالسيف إذا ضربته بعرضه دون حده.
(٢) البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٣) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).
(٤) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

المحصَن مشتقٌّ من عقوبة الله تعالىٰ لقوم لُوطٍ بالقذْفِ بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كُلٍّ منهُما فَسادٌ يُناقِض حكمةَ اللهِ في خلقِه وأمره، فإنَّ في اللواطِ من المفاسِد ما يفوتُ الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعولُ به خيرٌ له من أن يُؤتىٰ، فإنَّه يفسدُ فسادًا لا يُرجىٰ لَه بعده صلاحٌ أبدًا، ويذْهبُ خيرُه كلُّه، وتمصُّ الأرضُ ماوية الحياءِ من وجْهِه، فلا يستحيِي بعدَ ذَلك مِن اللهِ ولا من خلقِه، وتعمَلُ في قلبه وروحه نطفةُ الفاعِل ما يعمَلُ السمُّ فِي البدَنِ.

فصل: [أسباب سوء الخاتمة]

قَال الحافِظ أبو محمَّدٍ عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيليُّ رحِمه الله:

واعلمْ أنَّ لسوءِ الخاتمةِ - أعَاذنا اللهُ مِنها - أسبابًا، ولها طُرقٌ وأبْوابٌ، أعظمُها الإكبابُ علىٰ الدنْيا، والإعراضُ عن الأخرىٰ، والإقْدامُ والجرْأةُ عَلَىٰ معَاصِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ وربَّما غلبَ علىٰ الإنسان ضربٌ من الخطيئةِ ونوعٌ من المعصيةِ وجانِبٌ منَ الإعْرَاضِ ونصيبٌ من الجرْأةِ والإقدامِ، فملكَ قلبَه وسبَىٰ عقله وأطفأ نورَه وأرسلَ عليْه حُجبَهُ، فَلَمْ تنفعْ فِيه تذكِرةٌ ولا نجعتْ فِيه موعظةٌ، فربَّما جاءه الموت علىٰ ذلك، فسمعَ النداءَ من مكانٍ بعيدٍ، فلم يتبيَّنِ له المرادَ، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الدَّاعي وأعادَ.

قَال: ويُروىٰ أنَّ بعضَ رِجال النَّاصِر نَزَلَ به الموتُ، فجعل ابنُه يقول: قُل لا إله إلا الله، فقال: النَّاصِر مَوْلاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثْل ذَلك، ثم أصابتْه غشيَةٌ، فلمَّا أفاقَ قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصِرُ مولاي، ثُمَّ قال لابْنِه: يا فُلان، النَّاصِر إنما يعرفُك بسيْفِك، والقتلَ القتلَ، ثُمَّ مات.

قال عبدُ الحقِّ: وقيل لآخر - ممن أعرفُه -: قل: لا إله إلا الله، فجعلَ يقولُ: الدارُ الفلانيَّةُ أصلِحوا فِيها كذا، والبستانُ الفلانيُّ افعلُوا فيه كَذا.

وقِيل لآخر: قُل لا إله إلا اللهُ، فجعَل يقولُ: «أين الطريقُ إلىٰ حمَّام منجابٍ».

ولقدْ بَكىٰ سفيانُ الثوريُّ ليلةً إلىٰ الصَّباحِ، فلمَّا أصبحَ قِيل له: كُلُّ هذا خوفًا من الذنوبِ؟ فأخذَ تبنةً من الأرْضِ، وقال: الذنوبُ أهْونُ مِن هذا، وإنَّما أبْكِي مِن خوْفِ الخاتمةِ.

وَهَذَا من أعظمِ الفقْه: أنْ يخافَ الرجلُ أنْ تخذلَه ذنوبُه عِند الموْتِ، فتحولُ بينَه وبينَ الخاتمةِ بالحسْنَىٰ.

وقد ذكر الإمامُ أحمدُ عَنْ أبي الدرداءِ أنَّه لما احتُضِر جعل يُغمىٰ عليهِ ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

فَمنْ هَذَا خَاف السلَفُ من الذُّنوبِ أن تكونَ حِجابًا بينَهمْ وبينَ الخاتمة الحسْنىٰ.

قَالَ: واعلم أنَّ سُوءَ الخاتمة - أعاذَنا اللهُ تَعالىٰ منْها - لا تكون لمنْ استقامَ ظاهِرُه وصلُح باطِنه، مَا سمعَ بهذا ولا عُلِم به ولله الحمد، وإنَّما تكونُ لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرارٌ علىٰ الكبائرِ، وإقدامٌ علىٰ العظائمِ، فربما غلب ذلك عليه حتَّىٰ ينزلَ به الموتُ قبل التوبةِ، فيأخذه قبل إصلاح الطويَّة، ويُصطلم(١) قبل الإنابة؛ فيظفرَ بِه الشيطانُ عِند تِلك الصدْمَةِ، ويختطِفَه عندَ تِلك الدهْشَةِ، والعياذُ بالله.

---

(١) يُصطلم: يهلك.

فصل: [مفسدة اللّواط]

ولما كانتْ مفسدةُ اللواطِ منْ أعظمِ المفاسِد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقُوباتِ.

وقد اختلف النَّاسُ: هَل هُو أغلَظُ عقوبةً من الزنَا، أو الزنَا أغلظ عقوبةً مِنه أو عقوبتُهما سواءٌ؟

* فذهبَ أبو بكرٍ الصديقِ وعليُّ بْنُ أبي طالِب إلىٰ أن عقوبته أغلظُ من عُقوبةِ الزنَا، وعقوبتُه القتل علىٰ كلِّ حالٍ، مُحصنًا كان أو غير محصنٍ.

* وذهبَ عطاءُ بنُ أبِي رباحٍ، والحسنُ البصريُّ، إلىٰ أن عقوبته وعقوبة الزنا سواءٌ.

* وذهبَ الحكمُ[١] وأبُو حنيفةَ إلىٰ أنَّ عقوبتَه دُونَ عقوبةِ الزَّاني، وَهِي التعزير.

فصل: [علاج الشهوات]

فإن قيل: وهل مع هذا كلّه من دواءٍ لهذا الدَّاءِ العضال؟ ورقية لهذا السحرِ القتال؟ وما الاحتيال لدفْعِ هذا الخبال؟

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طُلِبَ له الدواءُ.

قِيلَ: نعمْ، الجوابُ من رأس «**وما أنزلَ اللهُ سبحانه مِن دَاءٍ إلَّا أنزلَ لَهُ دواءً عَلِمَهُ من عَلِمَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[٢].

(١) من علماء الكوفة، وكبار أصحاب النخعي، توفي سنة (١٣٢هـ).
(٢) أحمد (٨/ ٤٢٠١).

والكلامُ في دواءِ هَذا الدَّاءِ من طريقَيْنِ:

- **أحدُهما**: حَسْمُ مادَّتِه قَبْل حصولِها.

- **والثَّاني**: قلعُها بعْدَ نزولِها، وكلاهُما يسيرٌ عَلىٰ من يَسَّره اللهُ عليْهِ، ومتعذَّرٌ عَلىٰ منْ لم يُعِنْه، فإنَّ أَزِمَّةَ الأمُورِ بيديْهِ.

فأمَّا الطريقُ المانِعُ من حُصولِ هَذا الدَّاءِ، فأمرَانِ:

* **أحدُهما**: غَضُّ البصَرِ كَمَا تقدَّم؛ فإنَّ النظرةَ سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليسَ، ومن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه، وفي غضّ البصر عدّة منافع، وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع:

• **أحدُها**: **أنَّه امتثَالٌ لأمْرِ اللهِ الَّذِي هُو غايةُ سعادَةِ العبْدِ في معَاشِه ومعادِه**؛ فليْسَ للعبْدِ فِي دنياهُ وآخرَته أنفعُ من امتثالِ أوامرِ ربِّه تَبارَكَ وتعالىٰ، وما سعِد مَنْ سعِد في الدنْيا والآخرةِ إلا بامتثالِ أوامرِهِ، وما شَقِيَ من شقِيَ في الدنيا والآخرة إلا بتضْييعِ أوامرِهِ.

• **الثانيةُ**: **أنَّه يمتنعُ مِن وُصولِ أثَرِ السهْمِ المسمُومِ - الَّذِي لعلَّ فِيه هلاكَه - إلىٰ قلبِه**.

• **الثالثةُ**: **أنَّه يُورثُ القلبَ أُنْسًا باللهِ وجمعية علىٰ الله**؛ فإنَّ إطلاقَ البصرِ يفرِّقُ القلبَ ويشتته، ويبعِدُه من اللهِ، وليسَ علىٰ العبد شيءٌ أضرُّ مِن إطلاقِ البصَرِ؛ فإنَّه يوقِعُ الوحْشةَ بينَ العبْدِ وبينَ ربِّه.

• **الرابعةُ**: **أنَّه يقوِّي القلبَ ويفرِحُه**، كَما أن إطلاقَ البصرِ يضعفُه ويحزنُه.

• **الخامسَةُ**: **أنَّه يُكسبُ القلبَ نُورًا**، كما أنَّ إطلاقَه يُكسبُه ظُلمةً، ولهذَا ذَكر اللهُ

سبحانَه آيةَ النُّورِ عَقيبَ الأمرِ بغضِّ البصَر، فقالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

ثُمَّ قالَ إثرَ ذلكَ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] أيْ: مثلُ نورِه في قلبِ عبدِه المؤمِن الَّذِي امتثلَ أوامرَه واجتنَب نواهيَه.

• **السادسَةُ: أنَّه يُورثُ فراسةً صادقةً يميز بهَا بين المحقِّ والمبطلِ**، والصادقِ والكاذبِ، وكانَ شجاعٌ الكرمانيُّ يقولُ: مَن عَمَّر ظاهرهُ باتِّباعِ السنَّة وباطنَهُ بدوام المراقَبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهواتِ، واغتذَىٰ بالحلالِ، لم تخطئْ له فراسته.

• **السابعةُ: أنَّه يُورثُ القلبَ ثباتًا وشجاعةً وقوةً**، فيجمعَ اللهُ لَه بين سُلطانِ البصيرةِ والحجَّةِ وسُلطانِ القدْرة والقوَّة.

• **الثامنةُ: أنَّه يسدُّ علىٰ الشيطانِ مدخله إلىٰ القلبْ**؛ فإنه يدخل مع النظرةِ وينفُذ معها إلىٰ القلب أسرعَ من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثِّل لَه حُسْنَ صورةِ المنظُورِ إليه ويزيِّنُها، ويجعلُها صنمًا يعكُف عليْه القلب ثُمَّ يَعِدُه ويُمنِّيه ويُوقِد علىٰ القلب نارَ الشهْوةِ، ويُلقي عليْه حَطب المعاصِي الَّتِي لم يكنْ يتوصَّل إليْها بدُون تلك الصُّورةِ، فيصيرُ القلبُ في اللَّهيبِ.

• **التاسعةُ: أنَّه يُفرِغُ القلبَ للفكْرةِ في مصَالحِه والاشْتِغالِ بِها**، وإطْلاقُ البصَرِ يُشتِّته عن ذَلكَ ويحُولُ بينَه وبينَه، فينفَرِطُ عليه أموره، ويقعُ في اتِّباعِ هَواهُ وفِي الغفلةِ عن ذكرِ ربِّه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] وإطلاق النظر يُوجبُ هذهِ الأمور الثلاثة بحسْبِه.

• **العاشِرةُ: أنَّ بين العينِ والقلبِ منفذًا وطريقًا يُوجب انفعالَ أحدِهما عَنِ**

الآخَرِ، وأنْ يصلُحَ بصلاحِه، ويفسَدَ بفسَادِه، فَإذا فَسد القلبُ فَسد النَّظرُ، وإذا فسَد النظرُ فسَد القلبُ، وَكذلك فِي جانبِ الصَّلاحِ؛ فإذا خَربتِ العينُ وفسَدتْ خرب القلبُ وفسدَ وصارَ كالمزْبلَةِ الَّتِي هِي محلُّ النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يصلُح لسُكْنىٰ معرفةِ اللهِ ومحبَّتِه والإنابةِ إليْهِ، والأُنْسِ بِه والسُّرورِ بقرْبه فِيه، وإنَّما يسكُن فِيه أضدادُ ذَلك.

فهذِه إشارةٌ إلىٰ بعضِ فوائدِ غضِّ البَصرِ **تُطلِعُك عَلَىٰ ما ورَاءَها**.

* **الثَّانِي**: اشتغالُ القلبِ بما يصدُّه عن ذلِك، ويحُول بينَه وبينَ الوقُوع فِيه، وَهُوَ إمَّا خوفٌ مقْلِقٌ أو حبٌّ مزعِجٌ، فَمَتىٰ خَلا القلبُ مِن خوفِ ما فَوَاتُه أضرُّ عليْه مِن حُصول هَذا المحبُوبِ، أَوْ خوْفِ ما حصولُه أضرُّ عليْه من فوات هذا المحبوبِ، أو محبة ما هو أنفعُ له وخير له من هذا المحبوب، وفواتُه أضرُّ عليه من فواتِ هذا المحبوبِ = لم يجد بدًّا من عشقْ الصُّورِ.

وشرْحُ هَذا: أنَّ النفْسَ لا تترْكُ محبوبًا إلا لمحبوبٍ أَعلىٰ منْه أو خشيةِ مكْروهٍ حُصولُه أضرُّ عليْها مِن فَوات هَذا المحبُوب، وهذا يحتاجُ صاحِبُه إلىٰ أمرَيْنِ إن فقدَهما أو أحدهما لم ينتفعْ بنفسِه:

○ **أحدُهما: بصيرةٌ صحيحةٌ، يفرِّقُ بها بينَ درجاتِ المحبوبِ والمكروهِ**، فيُؤثِرُ أعلىٰ المحبُوبَيْنِ عَلىٰ أدْناهما، ويحْتمِلُ أَدْنىٰ المكْروهَيْن ليخلُص مِنْ أَعْلاهما وهذا خَاصَّةُ العقل، ولا يُعدُّ عَاقلًا مَنْ كان بضدِّ ذَلك؛ بل قَدْ تكونُ البهائمُ أحسنَ حَالًا منْه.

○ **الثَّانِي: قوةُ عزمٍ وصبرٍ، يتمكَّن بِه من هذا الفعْلِ والتَّركِ**، فكَثيرًا ما يعرِفُ الرجلُ قدْرَ التفاوتِ، ولكنْ يَأبىٰ لَه ضعفُ نفْسِه وهمَّتِه وعزيمتِه علىٰ إيثارِ الأنفعِ من جشعه وحرْصِه ووضاعةِ نفْسِه وخسَّةِ همَّتِه.

ومثلُ هَذا لا ينتفع بنفسِه، ولا ينتفع به غيرُه، وقد منع الله سبحانَه إمامةَ الدِّينِ إلا

من أهل الصَّبر واليقين، فقال تعالىٰ - وبقولِه يهْتدِي المهتدُون منهم -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، وَهذا هُو الَّذِي ينتفِعُ بعلمِه وينتفِعُ بِه الناسُ، وضدُّه لا ينتفِعُ بعلمِه، ولا ينتفعُ بِه غيرُه، ومِنَ النَّاسِ مَنْ ينتفعُ بعلمِه فِي نفسِه ولا ينتفِعُ به غيرُه، فالأوَّلُ يمشِي في نورِه ويمشِي الناسُ في نورِه، والثَّاني قَد طُفِئ نورُه، فَهُو يمشِي في الظُّلماتِ ومَنْ تَبعَه في ظلمتِه، والثالثُ يمشِي في نورِه وحدَه.

فصل: [الشرك في المحبة]

إِذا عرفْتَ هَذه المقدمة فلا يمكِنُ أن يجتمِعَ في القلبِ حبُّ المحبوبِ الأعْلىٰ وعشقُ الصُّورِ أبدًا؛ بَل هُما ضدَّانِ لا يتلاقَيَان، بَل لا بُدَّ أن يُخرِج أحدُهما صاحبَه، فمَنْ كَانت قوةُ حبِّه كلُّها للمحبوب الأعلىٰ الذي محبة ما سِواه باطلةٌ وعَذابٌ عَلَىٰ صاحبِهَا؛ صرَفَه ذلك عن محبَّةِ ما سواهُ، وإن أحبَّه لم يحبَّه إلَّا لأجْلِه، ولكوْنِه وسيلةً له إلىٰ محبَّتِه، أو قاطعًا له عما يضادُّ محبتَه ويُنقِضُها، والمحبةُ الصادقةُ تقتضِي توحيدَ المحبوبِ، وأنْ لا يشرِكَ بينَه وبين غيرِه في محبَّتِه.

واللهُ سبحانَه خلق الخلقَ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ لَهُ، التي هي أكمل أنواع المحبَّة مع أكمل أنواع الخضوعِ والذُّل، وهَذَا هُو حقيقةُ الإسْلامِ وملَّةُ إبراهيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فقدْ سفِه نفسَه، قال تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣].

ولهذا كانَ أعظمَ الذنُوبِ عِنْدَ اللهِ الشركُ.

وأصلُ الشركِ باللهِ: الإشراكُ به في المحبَّةِ، كَمَا قَال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

والمقصودُ: أنَّ حقيقة العبوديَّةِ لا تحصلُ مع الإشراك بالله في المحبَّةِ، بخلافِ المحبة لله، فإنَّها من لوازمِ العبوديَّةِ وموجباتِها؛ فإنَّ محبَّة الرسول - بل تقديمه في الحبِّ علىٰ الأنفس والآباء والأبناء - لا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بِها، إذْ محبتُه من محبة اللهِ، وكذلك كُلُّ حب في الله ولله.

وفي الحديثِ الَّذِي في السُّنَنِ[(١)]: «**مَنْ أحبَّ لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومَنع لله؛ فقد استكْمَل الإيمانَ**».

فإنَّ هذه المحبَّةَ مِن لوازِم محبَّةِ اللهِ ومُوجِباتِها، وكلَّما كانتْ أقْوىٰ، كَان أصلُها كذلك.

فصل: [أنواع المحبة]

وههُنا أربعةُ أنواعٍ من المحبةِ، يجب التفريقُ بينَها، وإنَّما ضلَّ مَن ضلَّ بعدَم التمْييزِ بينَها:

- **أحدُها**: **محبَّةُ اللهِ**، ولا تكْفِي وحدَها في النَّجاةِ مِنْ عذابِه والفوز بثوابه.
- **الثَّانِي**: **محبَّةُ ما يحبُّه اللهُ** وهذه هِي الَّتي تُدْخِلُه فِي الإسْلَامِ وتُخْرِجُه من الكفْرِ.
- **الثالث**: **الحبُّ لله وفِيه**، وهي من لوازم محبَّة ما يحبُّ.
- **الرابع**: **المحبَّةُ معَ اللهِ**، وهِي المحبةُ الشرْكِيَّة.

(١) أبو داود (٤٦٨١)، والترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٦/ ٣٣٢٧).

• **وبَقِي قسمٌ خامِسٌ ليْس ممَّا نحنُ فيه، وهو المحبَّةُ الطبعيَّةُ**، وهي ميلُ الإنْسانِ إلىٰ ما يُلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطَّعامِ، ومحبةِ النومِ والزوجةِ والولدِ، فتلك لا تُذَمُّ إلا إذا ألهت عن ذكر اللهِ، وشغلتْ عن محبَّتِه.

• **ثُمَّ الخُلَّةُ**: وهِي تتضمَّنُ كمالَ المحبَّةِ ونهايتها، بحيث لا يبقَىٰ فِي قلبِ المحبِّ سِعةٌ لغيْرِ محبوبِه، كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخذَ إبْراهِيمَ خَلِيلًا**»[١].

فصل: [أقسام المحبوب]

والمحبوبُ قسمانِ:

* **محبوبٌ لنفسِه.**

* **ومحبوبٌ لغيرِه.**

والمحبوب لغيرِه لا بدَّ أن ينتهِيَ إلىٰ المحبُوبِ لنفسِه، دفعًا للتسلسُلِ المحَالِ، وكُلّ مَا سِوىٰ المحبوبِ الحقِّ فهو محبوبٌ لغيْرِه، وليْس شيءٌ يُحبُّ لنفسِه إِلَّا اللهُ وحدَه، وكُلُّ مَا سواهُ مما يحبُّ فإنَّما محبَّته تبعٌ لمحبة الربِّ تبارك وتعالىٰ كمحبَّةِ ملائكتِه وأنبيائِه وأوليائِه، فإنَّها تبعٌ لمحبَّتِه سبحانَه، وهي من لوازِم محبَّتِه، فإنَّ محبة المحبوبِ تُوجبُ محبَّةَ ما يحبُّه، وهذا موضِعٌ يجبُ الاعتناءُ بِه.

والمحبوبُ لغيرِه قسمانِ أيضًا:

• **أحدُهما**: ما يلتَذُّ المحب بإدراكه وحصولِه.

• **والثَّانِي**: ما يتألَّمْ بِه ولكنْ يحتمِلُه لإفْضائِه إلىٰ محبُوبه كشُرْبِ الدَّواءِ الكرِيه، قال تعالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ

---

(١) مسلم (٥٣٢).

أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]، فأخبَر سبحانَه أنَّ القِتالَ مكروهٌ لهمْ مع أنَّه خيرٌ لهمْ؛ لإفضَائِه إِلىٰ أعظم محبُوبٍ وأنفعِه.

فالأمورُ أربعةٌ:

- مكروهٌ يُوصلُ إلىٰ مكروهٍ.
- ومكروهٌ يُوصلُ إلىٰ محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلىٰ محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلىٰ مكروهٍ.

فالمحبوبُ الموصل إِلىٰ محبُوبٍ قدِ اجْتمعَ فِيه دَاعي الفعلِ مِن وجْهَيْنِ، والمكروهُ الموصلُ إِلىٰ مكروهٍ قَدِ اجْتمعَ فِيه دَاعي الترْكِ من وجْهَيْن:

بَقي القسمانِ الآخرانِ يتجاذبُهما الداعيانِ - وهما معترك الابتلاءِ والامتحانِ - فالنفسُ تُؤثِرُ أقربَهما جِوارًا منْهما، وهُو العاجِلُ، والعقْلُ والإيمانُ يؤثِرُ أنفعَهُما وأبقَاهما، والقلبُ بَين الداعيَيْنِ، وَهُوَ إِلىٰ هَذَا مرَّةً، وَإِلَىٰ هَذا مرَّةً، وهَا هُنا محلُّ الابتْلاءِ شَرعًا وقَدَرًا.

فصل: [حب الله ورسوله أصل الأعمال الدينية]

وَإِذَا كَان الحبُّ أصلَ كلِّ عملٍ من حقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينيةِ حبُّ اللهِ ورسولِه ﷺ، كَما أَنَّ أصلَ الأقْوالِ الدينيَّةِ تصديقُ اللهِ ورسولِه ﷺ.

وَلا شيء علىٰ الإطلاقِ أنفعُ للعبد من إقبالِه علىٰ الله واشتغالِه بذكرِه وتنعُّمِه بحبِّه وإيثارِه لمرضاتِه.

مِن كلِّ شيءٍ إذا ضيعتَه عِوَضٌ ❊❊ وما مِنَ الله إنْ ضَيَّعْتَهُ عِوضُ

ولما كانتِ المحبةُ جنسًا تحتَه أنواعٌ متفاوتةٌ فِي القدْرِ والوصْفِ، كَانَ أغلَبُ ما يُذْكَرُ فيها في حقِّ اللهِ تَعَالَىٰ ما يختصُّ بِه ويلِيقُ بِه من أنواعِها.

* **وأعظمُ أنْواعِ المحبَّةِ المذمُومةِ**: المحبَّةُ مَعَ اللهِ الَّتي يُسوِّي المحبُّ فِيها بينَ محبَّتِه للهِ ومحبَّتِه للندِّ الَّذي اتخذَه مِن دُونِه.

* **وأعظمُ أنْواعِها المحمودةِ**: محبَّةُ اللهِ وحدَه ومحبَّةُ مَا أحبَّ، وهذِه المحبة هي أصلُ السَّعَادة، ورأسُها الَّتي لا ينجُو أحدٌ من العذابِ إلَّا بِها، والمحبَّةُ المذمومةُ الشرْكيَّةُ هي أصلُ الشَّقاوةِ ورأسُها الَّتي لا يبْقَىٰ فِي العذَابِ إلا أهلُها، فأهلُ المحبَّةِ الَّذِين أحبُّوا اللهَ وعبدُوه وحدَه لَا شَرِيكَ لهُ لا يدْخُلون النَّارَ، ومَنْ دخلَها منهم بذنُوبِه، فإنَّه لا يبْقَىٰ فيها منهُم أحدٌ.

وأصلُ دعوةِ جميعِ الرسُلِ عليهمُ السَّلامُ منْ أولهمْ إلىٰ آخرِهم إنَّما هو عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ لَهُ؛ المتضمِّنةُ لكمالِ حُبِّه، وكمالِ الخضوعِ والذلِّ له والإجْلالِ والتعظيمِ، ولوازِم ذَلك مِنَ الطَّاعةِ والتَّقْوَىٰ.

وقد ثبت في الصحيحَيْن[١] من حديثِ أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**والَّذِي نفسِي بيدِه لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليْهِ من ولدِه ووالدِه والنَّاسِ أجمعِين**».

وَفِي صَحيح البخارِيِّ[٢] أَنَّ عُمرَ بْنَ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَال: يَا رسُولَ اللهِ، واللهِ لأنْتَ أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا منْ نفسِي، فَقَالَ: «**لا يَا عُمَرُ حَتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليْكَ**

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) البخاري (٦٦٣٢).

مِـنْ نَفْسِـكَ». فقـال: والَّـذِي بعثَـكَ بـالحقِّ لأنْـتَ أحـبُّ إلـيَّ مِـنْ نفسِـي، قـال: «الآنَ يَا عُمَرُ».

فصل: [الفرق بين المحبة المحمودة والمحبة الضارة]

والمحبـةُ لهـا آثـارٌ وتوابِـعُ ولـوازِمُ وأحكـامٌ، سـواءً كانـتْ محمـودةً أو مذمومـةً، نافعةً أو ضارَّةً.

* **والمحبةُ المحمودَةُ هي المحبَّةُ النافعةُ الَّتِي تجلِبُ لصاحبِها ما ينفعُه في دُنياهُ وآخرَتِه**، وهذهِ المحبَّةُ هِي عُنوانُ سعادَتِه، والضارَّةُ هِي الَّتِي تجلِبُ لصاحِبِها ما يضرُّه في دنياه وآخرتِه، وهِي عُنوان شقاوتِه.

* **والمحبةُ الضارَّةُ المذمُومةُ توابعُها وآثارُها كُلُّها ضارَّةٌ لصاحِبِها مُبْعِدَةٌ لَه مِن رَبِّه**، كيفما تقلَّبَ في آثارِها ونزلَ فِي منازِلها فَهُو فِي خَسارةٍ وبُعْدٍ.

وَكَمَا أنَّ المحبَّة والإرادةَ أصْلُ كُلِّ فعلٍ كما تقدَّم؛ فهي أصل كلِّ دينٍ سَواء كـانَ حَقًّا أو بَاطلًا، فإنَّ الدِّينَ هُو مِنَ الأعْمالِ الباطنَةِ والظاهرةِ، والمحبةُ والإرادةُ أصلُ ذلك كله، والدينُ هو الطاعةُ والعادةُ والخُلُقُ، فهو الطَّاعةُ اللَّازِمةُ الدَّائِمةُ الَّتي صَارتْ خُلقًا وعادةً، ولهذا فُسِّر الخُلقُ بالدِّينِ فِي قولِه تَعالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَال الإمَامُ أحمَدُ عنِ ابْنِ عُيينَةَ قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ: «**لَعلَىٰ دِينٍ عَظِيمٍ**».

فصل: [ضرر عشق الصور]

ونختِمُ الجوابَ بفصْلٍ متعلِّقٍ بعشْقِ الصُّورِ ومَا فِيه مِنَ المفاسِدِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ، وإنْ كانتْ أضعافَ مَا يذكُره ذَاكِرٌ؛ فإنَّه يفسِدُ القلبَ بالذَّاتِ، وإذَا فسدَ القَلبُ فسدَتِ الإرَادَاتُ والأقْوالُ والأعْمالُ، وفسدَ نفس التوحيدِ كَمَا تقدَّمَ.

واللهُ سبحانَه وتَعالىٰ إنَّما حكَىٰ هَذا المرَضَ عنْ طائفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ وهما اللوطيَّةُ والنِّساءُ، فأخبر عن عشقِ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ وما راودتْه وكادتْه به، وأخبر عن الحال الَّتِي صار إليْها يوسفُ بصبْرِه وعفَّتِه وتقْواه، مَع أنَّ الَّذِي ابْتُلي بِه أمرٌ لا يصْبِرُ عليْه إلَّا مَن صبَّره اللهُ عليه، فإنَّ موافقة الفعلِ بحسبِ قوَّةِ الدَّاعِي وزَوَالِ المانِع، وكان الدَّاعي هاهنا في غاية القوةِ، وذلك مِنْ وُجوهٍ:

* **أحدُها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبْعِ الرَّجُلِ من مَيْلِه إلىٰ المرأة**، كما يميلُ العطْشَانُ إلىٰ الماءِ.

* **الثَّاني: أنَّ يُوسُفَ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **كان شابًا**، وشهوةُ الشَّباب وحِدَّته أقْوىٰ.

* **الثالثُ: أنَّه كان عَزَبًا ليْس لَه زوجةٌ ولا سريَّةٌ** تكْسِر شدَّةَ الشهْوَةِ.

* **الرَّابعُ: أنَّه كانَ فِي بِلاد غرْبَةٍ.**

* **الخامِسُ: أنَّ المرأةَ كانَت ذَاتَ منْصِبٍ وجمالٍ.**

* **السَّادس: أنَّها غير ممتنعةٍ ولا آبيةٍ.**

* **السَّابع: أنَّها طَلَبَتْ وأرادتْ وراودتْ وبذلتِ الجهدَ**؛ فكفتْه مؤنةَ الطلبِ.

* **الثَّامن: أنَّه في دارِها** وتحتَ سلطانِها وقهْرِها.

* **التاسـع: أنَّـه لا يَخشـىٰ أن تَـنُمَّ عليْـه هـي ولا أحـدٌ مـن جهتِهـا؛ فإنَّهـا هـي الطالِبةُ والرَّاغبةُ.**

* **العاشر: أنَّه كان في الظَّاهِر مملوكًا لها في الدَّارِ،** بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكَر عليه.

* **الحـادي عَشَـر: أنَّهـا اسـتعانتْ عليـه بأئمَّـةِ المكْـرِ والاحْتِيـالِ،** فأرتـه إيـاهنَّ، وشكتْ حالها إليهنَّ لتستعين بهنَّ عليْه.

* **الثَّاني عشرَ: أنَّها تواعدته بالسجْنِ والصَّغار،** وهذا نوع إكراهٍ.

* **الثَّالثَ عشرَ: أنَّ الزوجَ لم يظهر منه من الغيرةِ والنخْوةِ ما يفرِّقُ به بينَهما.**

والطائِفةُ الثانيةُ الَّذين حَكىٰ اللهُ عنهُمُ العشْقَ: هُم اللوطيَّةُ.

وهذَا داءٌ أعْيا الأطبَّاءَ دوَاؤه، وعزَّ عليهم شِفاؤه، وهـو لعمـر اللهِ الـدَّاءُ العضـالُ، والسُّـم القتَّـالُ، الَّـذي مـا علِـق بقلـبٍ إلَّا وعـزَّ عَلَـىٰ الـوَرَىٰ اسـتنقَاذُه مـن إسـارِه، ولا اشتعلَتْ نارُه فِي مهْجَةٍ إلَّا وصعُبَ علىٰ الخلقِ تخلِيصُها من نَارِه.

فصل: [دواء عشق الصور]

ودواءُ هذا الدَّاء القتَّـال: أَن يعـرِفَ مـا ابتُلِـي بـه مِـنْ هـذا الـدَّاءِ المضـادِّ للتوحِيـد أولًا، ثُمَّ يـأتِي مـن العبـاداتِ الظـاهرةِ والباطنـةِ بِمَـا يشـغلُ قلبَـه عـن دوامِ الفكْـرةِ فِيـه، ويكْثِر اللَّجْأَ والتضرُّعَ إلىٰ اللهِ سبْحانَه فِي صرْفِ ذَلك عَنْه؛ وأنْ يُراجِع بقلبِه إليه.

وليْسَ له دواءٌ أنفعُ مِنَ الإخْلَاصِ للهِ.

ومِن المعْلُومِ أنَّه ليسَ في عشقِ الصُّورِ مصلحةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ؛ بـل مفسـدَتُه الدينيـةُ

والدنيويةُ أضْعافُ أضعافِ مَا يُقَدَّرُ فِيه مِن المصلَحةِ وذلِك مِنْ وُجوه:

- **أحدُها: الاشتِغالُ بحبِّ المخلُوقِ وذكْرِه عَنْ حبِّ الربِّ تَعَالىٰ وذكرِه**؛ فلا يجتمِعُ في القلبِ هَذا وهَذا إِلَّا ويقْهَر أحدُهما صاحبَه، ويكُون السلطانُ والغلبةُ لَهُ.
- **الثاني: عذابُ قلبِه بمعشُوقِه**؛ فإنَّ من أحبَّ شيئًا غيرَ اللهِ عُذِّب بِه ولا بدّ.
- **الثَّالثُ: أنَّ العاشقَ قلبُه أسيرٌ في قبضة معشوقه يسومُه الهوانَ.**
- **الرَّابعُ: أنَّه يشتغلُ به عن مصالح دينه ودُنياهُ.**
- **الخامسُ: أنَّ آفاتِ الدنْيا والآخرةِ أسرعُ إلىٰ عُشاق الصُّورِ من النَّارِ في يابِس الحطَبِ.**
- **السادسُ: أنَّه إذا تمكَّنَ من القلِب واستحْكَم وقَوِي سلطانُه، أفسد الذِّهنَ وأحْدثَ الوسواسَ**، وربما التحق صاحبهُ بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.
- **السابع: أنَّه ربَّما أفسَد الحواسَّ أو بعضَها**، إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًا.
- **الثامن: أنَّ العشقَ كَما تقدَّم هُو الإفْراطُ في المحبَّةِ**، بحيث يستولي المعشوقُ علىٰ قلب العاشِق، حتىٰ لا يخلو من تخيُّلِه وذكرِه والفكرِ فيه، بحيث لا يغيبُ عن خاطرِه وذهنِه، فعند ذلك تشتغلُ النفسُ عن استخدامِ القُوىٰ الحيوانيَّة والنفسانيَّة فتتعطلُ تلك القُوىٰ، فيحدث بتعطلِها من الآفاتِ علىٰ البدن والروحِ ما يعزُّ دواؤُه أو يتعذَّرُ؛ فتتغيرُ أفعالُه وصفاتُه ومقاصِدُه، ويختلُّ جميعُ ذَلك، فيعجزُ البشَرُ عن صلاحِه.

والعشْقُ مبادِئُه سهلةٌ حُلوةٌ، وأوسَطُه همٌّ وشغلُ قلبٍ وسقمٌ، وآخِرُه عطَبٌ

وقتلٌ؛ إنْ لم يتدارَكْه عِنايةٌ من الله.

والعاشِق لهُ ثلاثةُ مقَاماتٍ:

- مقامُ ابتداءٍ.
- ومقَام توسّطٍ.
- ومقامُ انتهاءٍ.

فأمَّا مقامُ ابتدائِه، فالواجبُ عليْهِ فِيه مُدافعَتُه بكلِّ ما يقدِرُ عليْهِ إذا كَانَ الوُصولُ إِلىٰ معشُوقِه متعذِّرًا قَدَرًا وشرْعًا.

فإنْ عَجَزَ عن ذلك وأبىٰ قلبُه إلا السفَرَ إلىٰ محبُوبه -وهذَا مقامُ التوسُّط والانتِهاءِ- فعليْه كتمانُ ذلك، وأن لا يفشيه إلىٰ الخلق، ولا يشبِّبُ بمحبُوبه ويهتكِه بين النَّاسِ، فيجمعُ بينَ الشرْكِ والظلمِ؛ فإنَّ الظلمَ فِي هَذا البابِ من أعظَمِ أنْواعِ الظلمِ، وربَّما كان أعظم ضررًا علىٰ المعشوق وأهلِه من ظلمِه فِي مَالِه، فإنَّه يعرِّضُ المعشوقَ بهتْكِه في عشْقِه إلىٰ وُقوعِ النَّاسِ فِيه وانقِسامِهمْ إلىٰ مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ، وأكثرُ النَّاسِ يُصدِّقُ فِي هَذا البابِ بأدْنَىٰ شُبْهَةٍ، وَإِذَا قِيل: فَلانٌ فَعلَ بفلانٍ أو بفلانةٍ؛ كَذَّبَه واحدٌ وصَدَّقَه تسعمائة وتسعةٌ وتسعونَ.

فكمْ للعشْقِ من قَتيلٍ من الجانبَيْنِ، وكمْ قَد أزالَ مِن نعمَةٍ، وأفْقَر مِنْ غِنًىٰ، وأسْقطَ مِن مرْتَبةٍ، وشتَّتَ مِنْ شمْلٍ، وكمْ أفسَدَ مِنْ أهْلٍ للرَّجلِ وولد! فإنَّ المرْأةَ إِذا رأتْ بعلَها عاشِقًا لغيرِها اتخذَتْ هِي معشُوقًا لنفسِها، فيصيرُ الرَّجلُ متردِّدًا بينَ خَرابِ بيتِه بالطَّلاقِ وبينَ القِيادَةِ[1]؛ فمنَ النَّاسِ مَنْ يُؤثرُ هذا، ومنْهم مَنْ يُؤثرُ هَذا، **فَعلَىٰ العاقل أن لا يحكمَ علىٰ نفسِه عشقَ الصُّورِ لئلَّا يؤديَه ذلك إلىٰ هذه المفاسِد أو**

(١) هي الدِّياثة.

أكثرِها أو بعضِها، فمن فعل ذلك فهو المفرِّطُ بنفسِه المغرِّرُ بها، فإذا هلكَتْ فَهُو الَّذِي أهلَكَها.

فصل: [أسباب كمال اللذة والفرح والسرور]

وههُنا أمرٌ عظيمٌ يجبُ علىٰ اللَّبيبِ الاعتناءُ به، وهوَ أن كمال اللذةِ والفرحِ والسُّرور ونعيمِ القلبِ وابتهَاج الرُّوحِ تَابعٌ لأمرَيْنِ:

* **أحدُهما**: كمالُ المحبوبِ في نفسِه وجمالِه، وأنَّه أوْلىٰ بإيثارِ الحبِّ مِنْ كُلِّ مَا سِواهُ.

* **والأمرُ الثَّانِي**: كمالُ محبَّتِه، واستفراغُ الوسْعِ فِي حُبِّه، وإيثارُ قرْبِه والوصولِ إليْه علىٰ كلِّ شيءٍ.

وإذَا عُرف هَذا، فاللذةُ والسُّرورُ والفرَحُ أَمرٌ مطْلوبٌ في نفسِه، بَل هُو مقصودُ كلِّ حيٍّ، وإذَا كانتِ اللَّذَّةُ مطلوبةً لنفسِها فهي تُذمُّ إذا أعقبتْ ألمًا أعظمَ منْها، أو منعتْ لذَّةً خيرًا وأجلَّ منْها، فكيف إذا أعقبتْ أعظمَ الحسراتِ، وفَوَّتَتْ أعظمَ اللذَّاتِ والمسرَّاتِ؟

واللهُ سبحانَه خلقَ الخلقَ لينيلهمْ هذه اللذَّةَ الدائِمةَ في دَارِ الخلدِ.

إِذَا عُرِف هَذا، فأعظمُ نعيمِ الآخرَةِ ولذَّاتِها: هُو النظرُ إلىٰ وجْهِ الربِّ جَلَّ جلالُه وسماعُ كلامِه منْه، والقرْبُ منْه، كَمَا ثبتَ في الصَّحيحِ[1] في حَديث الرؤْيةِ: «**فَوَاللهِ مَا أعطَاهُمْ شيئًا أحبَّ إليهمْ مِنَ النَّظرِ إليْه**».

---

(١) مسلم (١٨١).

وَإِذَا عُرف هَذا، فأعظمُ الأسْبابِ الَّتي تُحصِّل هذه اللذَّةَ هُو أعظمُ لذَّاتِ الدنيا عَلىٰ الإطْلاقِ، وهُو لذَّةُ معرَفته سُبحانَه وتَعالىٰ ولذُّة محبَّتِه.

والمقصودُ: أَنَّ أعظمَ لذَّاتِ الدنْيا هُوَ السببُ الموصلُ إِلىٰ أعظَمِ لذَّةٍ فِي الآخرَةِ، ولذَّاتُ الدُّنْيَا ثلاثةُ أنْواعٍ:

- **فأعظمُها وأكملُها**: مَا أوصَل إِلىٰ لذَّةِ الآخرَةِ.
- **النوعُ الثَّانِي**: لذَّةٌ تمنَعُ لذَّةَ الآخرَةِ وتعقبُ آلامًا أعظم منْها. كَلَذَّةِ الَّذينَ اتَّخذُوا مِن دُون اللهِ أَوثانًا مَودَّةَ بينِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، يُحبونُهم كحبِّ اللهِ.
- **النوعُ الثالثُ**: لَذَّةٌ لَا تعقب لذةً فِي دَارِ القرَارِ وَلا ألمًا، ولا تمنَعُ أَصْلَ لذَّةِ دارِ القرارِ، وإنْ منعَتْ كَمالها.

فَما أَعَانَ عَلَىٰ اللَّذَّةِ المطلوبةِ لذاتها فهو حقٌّ، وما لم يُعِنْ عليْها فَهُوَ باطِلٌ.

فصل: [محبة الزوجة]

وأمَّا محبَّةُ النسوان: فَلا لوْمَ علىٰ المُحبِّ فِيها؛ بل هي من كماله، وقد امتنَّ سُبحانه بِها علىٰ عبادِه فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]، فَجعلَ المرْأةَ سَكنًا للرَّجُلِ يسكُن قلبُه إِليْها، وجعل بينَهما خالِص الحبِّ، وَهُوَ المودَّةُ المقترنةُ بالرَّحْمَةِ، وقدْ قال تعالىٰ عَقِيبَ ذِكْرِه ما أحلَّ لَنا مِنَ النِّساءِ وما حرَّم منهنَّ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

وفِي الصَّحِيح[(١)] مِنْ حَدِيث جَابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّه رَأىٰ امرأةً فأتَىٰ زَينب فَقضىٰ حاجَتَه مِنها، وقَال: **«إنَّ المرْأةَ تُقبِلُ فِي صُورَةِ شيطانٍ، وتُدْبِرُ فِي صُورَة شيطَانٍ، فإذَا رأىٰ أحدُكُمْ امرأةً فأعجبتْه فليأْتِ أهلَه؛ فإنَّ ذَلك يرُدُّ مَا فِي نفسِه»**.

وَلَا رَيْبَ أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ قدْ حُبِّب إليه النساءُ، كمَا فِي الصَّحيحِ منْ حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عنْه ﷺ: **«حُبِّب إليَّ مِن دُنياكُم: النساءُ، والطيبُ، وجُعلتْ قرَّةُ عينِي فِي الصَّلاة»**[(٢)].

وأمَّا حديثُ: **«مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ»** فهذا يرْوِيه سُويدُ بنُ سَعيدٍ، فقدْ أنكَره حُفَّاظُ الإسْلَامِ عليْه.

وكلامُ حُفَّاظ الإسْلامِ فِي إنْكَارِ هَذا الحديثِ هُو الميزانُ، وإليْهم يُرجَع فِي هَذَا الشأْنِ، وَمَا صحَّحهُ بل ولا حسَّنه أحدٌ يُعوَّلُ فِي علمِ الحديثِ عليْه، ويُرجعُ فِي التصحِيح إليْه.

فَنَسْأَلُ الله العظيمَ ربَّ العرشِ العظيم أنْ يجعلَنا ممنْ آثر حُبَّه عَلىٰ هَواه، وابتغَىٰ بذلِك قرْبَه ورِضَاه.

---

(١) مسلم (١٤٠٣).
(٢) النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد (٥/ ٢٥٩١).

فهرس الموضوعات



محتويات الحقيبة

1. مختصر الداء والدواء
2. مختصر الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
3. مختصر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح
4. مختارات من كتاب الصلاة
5. مختصر الفوائد
6. مختصر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
7. مختصر إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان
8. خلاصة مدارج السالكين في منازل السائرين
9. مختصر طريق الهجرتين وباب السعادتين
10. مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد
11. مختصر جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ﷺ
12. مختصر تحفة المودود بأحكام المولود
13. مختصر التبيان في أيمان القرآن
14. مختصر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة
15. مختصر روضة المحبين ونزهة المشتاقين
16. مختارات من بدائع الفوائد
17. مختصر كتاب الروح
18. ثلاث رسائل لابن القيم

للطباعة لدُور النشر
والجهات المانحة

مطابع الفسطاط-واتساب:
00201222560045

مشروع مختصرات
كُتُب السَّلف
وقفُ من المختصِر
لهُ ولوالدَيه وزوْجَته وذُرِّيَّته